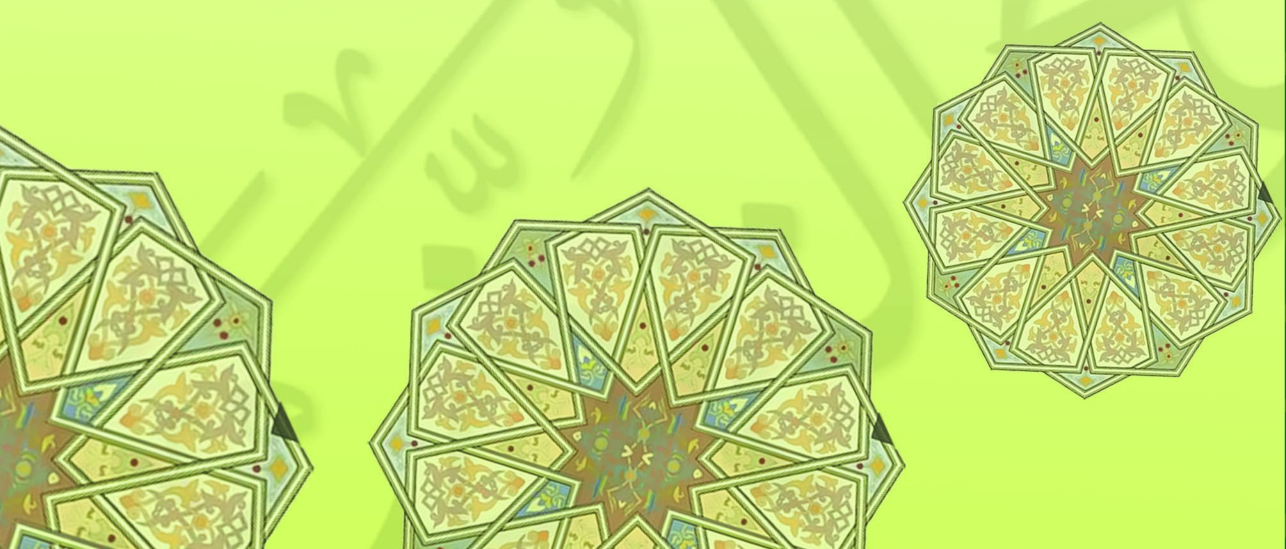
أثر العلماء في

مشروع النهضة

د. يحيى بن إبراهيم اليحيى



أثر العلماء

في مشروع النهضة

(ح) يحيى إبراهيم علي اليحيى، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اليحيى، يحيى إبراهيم علي

أثر العلماء في مشروع النهضة / يحيى إبراهيم علي اليحيى
- المدينة المنورة، ١٤٣٥هـ

٨٧ ص ؛

ردمك: ٧-١٠٩٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١-الإسلام والمجتمع ٢-الإسلام والعلم / العنوان

ديوي ٢١٩ ١٤٣٥/٨٠٠٤

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٨٠٠٤

ردمك: ٧-١٠٩٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨







تقديم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، وخلق الموت والحياة ليبلُوَنا أيُّنا أحسن عملا، والصلاة والسلامُ على مَن بُعثَ ليتمِّمَ صالح الأخلاق بقوله وفعله، وعلى آله وأصحابه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، أما بعدُ:

فإنّ من سنّة الله تعالى أن استخلف بني آدم عليه السلامُ في الأرض، وأمدَّهم بنعمه، وأرسل إليهم رُسله؛ ليقومَ الناس بالقسط، فكان الأنبياءُ والرُّسل صلواتُ الله عليهم هم القائمين بأمرِ الله في خلقه، الدّاعين إلى هداه، فيُضلّ الله مَن يشاء ويهدِي مَن يشاء، وهكذا أتباعُهم على دينِهم من بعدِهم، إلى أن ختم أنبياءَه بأشرفِهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فجاء بها شريعةً بيضاء نقيّة مبرّأة من كلِّ تحريف، وجعلها مهيمِنةً على ما قبلها من الشّرائع.

وقام صحابته رضوانُ الله عليهم بالأمر من بعدِه، فشادوا بناء الإسلام، وساسُوا الناس بالعلم والعدل، وأرسَوْا معالم دولة الإسلام.

وقد سارتْ دولُ الإسلام من بعدهم على مرِّ العصور مترسِّمة تلك

المعالم، وما وقعَ فيها من خللٍ فإنما مردُّه إلى ما حصل من التفريطٍ في ذلك؛ وذلك لأنّ العلماءَ - والصحابة أوَّلُهم في هذه الأمة - هم ورثةُ الأنبياء، وهم مَن اتّصفوا بالعلم، وأَعنِي بهم هنا العلماءَ الربانيِّين، جمع ربّانيّ، وهو الجامعُ إلى العلم والفقهِ البَصَرَ بالسِّياسةِ والتَّدبير، فالعُلماء الربانيُّون هم عمادُ النَّاس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا[1]، والله سبحانه قد رفعهم درجاتٍ وفضّلهم على غيرِهم، فهُم الأسوة وأهل الحلّ والعقد، وقوَّة الدُّول أو ضعفُها يكون بقدر استنارتها بهُدى العلماء في الإصلاح ودرء الفساد؛ أو التفريط في ذلك، فإذا كان العلماء هم قدوتَها صلح حالُها وازدادت قوّة كلَّ حين بإذن الله، وإن فرَّطت فيهم ولم تقتد بهم وتصدرْ عن رأيهم أو فرَّطوا هم بترك ما يوجبه عليهم علمُهم تُجاهَها فإنّ حالها إلى ضعفٍ، وضعةٍ، وتشتُّت وخذلان، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وإنما فُضِّل العلماءُ على غيرِهم لما يعلمونه ويعملون بموجبه من هُدى الله تعالى، وقد أخذ سبحانه عليهم ميثاقاً أن يبيِّنوا هداه ولا يكتموه، وحضَّ الربانيين والعلماء على نهي القائلين الإثم عن قولهم، والآكلين السحتَ عن أكلهم فقال: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة: ٦٣)، قال الطبري رحمه الله: (وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشدّ توبيخًا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها)؛ فالواجبُ عليهم عظيمٌ كفضلِهم.

---

(١) انظر جامع البيان (٣/٣٢٧)، للطبريّ (ت: ٣١٠هـ) ط الثالثة عام ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

فإذا كان بالأمة همّةٌ للنهوض لعزِّها وحرصٌ على استرداد مجدِها فإنّ السبيل الذي لا ثاني له هو العنايةُ بأمر العلماء الربّانيين والرجوعُ إليهم في العلم والتعليم، وفي السياسة والحكم، وفي الآداب والأخلاق، وفي الاقتصاد والتنمية، وفي الحرب والسلم، وفي كلّ شأن من شؤون الحياة؛ فإنه لا قيام لديننا ولا دنيانا إلا بذاك.

ولا يسهل هذا إلا على من سمت غايته وعلت همته من علماء الأمة وقادتها، فإن من علت همته سهل الله تعالى مهمته ويسرها له، فيستهل الصعاب، ولا تقف أمامه الشدائد.

وقد عرضتُ في هذا الكتاب طريقةَ اثنين من علماء الإسلام في القرن المنصرِم ممن علت همتهم، أحدُهما مغربيٌّ والآخر مشرقيّ، كلاهما حمَلَ همّ النهوضِ والإصلاح، رأيت في الذي قاما به رحمهما الله تعالى أنموذجاً يُحتذَى وطريقاً يُسلَك ولا سيما مع قرب العهد، فعسَى أن يُصادفَ نفساً صالحة ترى فيه ما يكونُ بإذن الله عوناً على الإصلاح.





ارتباط العلم بالإيمان من أهم أسس النهضة

يقول الله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١)، فحين ارتبط العلم بالإيمان بالله تعالى زَكا، وزَكا أهلُه، وأينعت ثمارُه، وكان رحمة وخيرًا وسعادة للأمة فرَفع شأنَها، ولَمَّ شَعَثَها وجَمَعَ تفرُّقها، وأزال فسادها ومحا ظلامها، وقضى على ظُلْمِها، فتنفس الناس الصُّعَداء وتفيَّأوا ظلالَ المحبة والإخاء، ورفرفت عليهم راياتُ الأمْن والعطاء، فصاروا يمشون في مناكب الأرض ويأكلون من رزق خالقها وخالق السماء، وذهبوا يكتشفون ما سخر لهم ربهم، قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾ (الجاثية:٣١)، وعلموا أنّ الله خلق المخلوقات من أجلهم، وأصبحوا يستثمرون طاقاتهم، ويُطوِّعُون قدراتِهم، ويوجهون إمكاناتهم نحوَ العمل والإنتاج المثمر الذي يعود على جميع المخلوقات بالراحة والهناء، والرحمة والسناء.

ولما انفصل العلمُ عن اسم الله في العصر الحديث تحوَّل العلمُ إلى شقاء وعناء، وفساد وضلال! فأضاع أكثرُ الناس أعمارهم، وبدَّدوا أموالهم وسخَّروا تفكيرَهم وطاقاتِهم فيما يعود عليهم بالشر والفساد،

والوباء والهلاك، فراحُوا يتسابقون في صناعة أسلحة الدمار الشامل والأسلحة الجُرْثُومية، ويتفنَّنون في تنمية الاقتصاد بتدمير الأرزاق وخيرات الأرض حفاظًا على الأسعار، وامتُهِنت المرأة فضاع الأطفال، وانتشرت أجهزة الفساد والضلال، وراجت المخدرات، وتفنَّنَت البشرية بالظلم والقهر والغُرور! فسُحِق الضعيف، وجُوِّع الفقير، وانتشرت الأمراض، والإبادات الجماعية!، فقلّما أتى على البشرية شقاءٌ وانحرافٌ في تاريخها كهذا الانحراف والشقاء والظلم المقنَّن.



معالم النهضة لدى العلماء

- العلماء الربانيون هم قادة الأمة نحو العلم النافع، وهم صُنّاعُ النهضة الحقيقية، **فهم الذين يقودون** الناس نحوَ التقدّم والنهوض، ويَحُثُّونهم على استثمار ما سخَّر الله لهم.

- **وهم الذين يَرسُمون الرؤيةَ السليمة للأحداث، ويَضعون الخطَط الشاملة للنهوض، ويبينون للناس الحضارة الواعية** وهي حضارة الإنسان السَّوِيّ المحافظ على فطرته وأخلاقه، المستثمر لطاقاته وقدراته فيما يعود عليه وعلى البشرية بالرخاء والسعادة.

- **وهم الذين يَستشرفون المستقبلَ، ويُخطِّطون له** بما أوتوا من سَعة الأفق في فهم هذا الدين العظيم، وبما امتازوا به من سَعة الصدر في استيعابِ الناس واحتوائهم وصرفِ هممِهم نحوَ العلم النافع والعمل الجادّ المثمر.

- فالعلماء الربانيون أصحابُ رؤية بعيدةٍ!، **ينأَوْنَ بالأمة عن مواطن الهلَكَةِ** في الأحداث والخطوب الجسام، لِما يعلمون من سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير، قال الله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ (فاطر: ٣٤)، فيحملون الأمة على سفينة

النجاة ويتجاوزون بها الأخطار، لعلمهم بطبيعة التحديات التي تواجه الأمة، والآثارِ المترتبة عليها، قال ابن القيم رحمه الله: «ومتى انفتح هذا الباب (السنن الإلهية) للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، ومَاجَرَيات الخلق، بل انتفع بماجَرَيات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفَهِم حينئذ معنى قول الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾»[1].

- **العلماء الربانيون ناجحون، ويعملون على إنجاحِ الناس في هذه الحياة،** فيصنعون التلاميذ بالعلم والتزكية السليمة حتى تدوم النهضة بقيادتهم وتوجيههم، وعلى حفْظِ التوازُن لدى الناس، فلا تختلّ الأمور بموت عالم؛ فقد خلف كثيراً من أمثاله يقودون السفينة من بعده.

- **فهم أعدلُ الناس، وأرحم الناس بالناس،** كما أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه، يَنفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)[2].

- **فيَبنُون حياة الناس على أُسُسٍ من العلم والعدل والصلاح، ويُعرِّفون الناس شمولية هذا الدين وكماله، ويَنفُون عنهم المفاهيم**

(١) مدارج السالكين (ص٣٠٢)، لابن القيم (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق عبد العزيز ناصر الجُلَيِّل، ط الأولى عام ١٤٠٣هـ، دار طيبة الرياض.

(٢) أخرجه الطحاوي (ت: ٣٢١هـ) في مشكل الآثار (١٠/١٦)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط الثانية، عام ١٤٢٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت. وصححه الألباني (ت: ١٤٢٠) في تحقيقه (١/٨٣) لمشكاة المصابيح للخطيب التبريزيّ (ت بعد ٧٣٧هـ)، تحقيق الألبانيّ، الطبعة الثانية عام ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلاميّ، بيروت.

الخاطئة، ويؤصِّلون المفاهيم الصحيحة، لا يصدهم عن مصالح الناس وبيانها خوفُ لائمٍ ولا عذلُ عاذل، لأنهم حماة البشرية وأطباؤها فمعهم الترياق الشافي من جميع أمراضها، فاجتهدوا في تحقيق الحق في أنفسهم وتحقيقه في حياة الناس من حولهم.

- **وهم الذين يحفظون على المجتمعات الإسلامية طريقَها المستقيم حتى لا تتشعب بهم السبل**، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ٣٥١)، ويحفظون على الأمة هويتها حتى لا تذوب، ولا تتلوث أفكارُها، ويحفظون عليها ثرواتِها فلا تتبدد، ويحفظون لها نورها حتى لا يَخبُو، ولِتبقى الأمة مستعدةً للنهوض، متوازنةً في الأعمال والأفكار والأخلاق والعواطف والمواقف.

- **يحدِّدُ العلماء للأمة مسارها** حتى لا تَحيد عنه، ويضبطون لها مفاهيمها حتى لا تَضِلّ أو تَزيغ.

- **العلماء الربانيُّون بُناة النهضة، يَشْحذُون همم الناس**، ويحافظون على عواطفهم وأفكارهم من أن تتبدد في أودية حماسٍ غير منضبط، فيُبعِدونهم عن رُدود الأفعال غير الواعية والسليمة، يُثبِّتُونهم في ميادين الصراع ومواقع استخفاف المستخفين بهم، يصنعون لهم مواقع المواجهة السِّلْمية ولا يُقادون إلى ميادين الصراع التي صنعها أعداؤهم.

- **وهم الذين يُبينون للناس قُطَّاع طريق النهضة فيفضحون عَوَارَ المنافقين والمفسدين**، ويوضحون لهم أهدافهم وفساد طريقهم، بذكر

أوصافهم وأعمالهم دون الدخول في تعيين أسمائهم وألقابهم على وفق منهج القرآن الكريم (ومنهم...ومنهم...).

- **يعمل العلماء الربانيون بكُلّ جهدهم على صبغ حياة الناس بالإيمان والتقى والصلاح** عملًا بقول الله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة: ١٣٨)، فالإيمان ملازم لهم ملازمة الصبغة للثوب، حتى يصبح الإيمان شعارهم كما أنّ الصّبغ شعار الثوب.

- **وهم الذين يُوظِّفون كل شخص فيما يُحسنه**، اقتداء بتربية الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (... وأعلمها[1] بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أُبَيّ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت...)[2]، وقال: (نِعْمَ عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله)[3]، ويتعاونون مع كلّ مَن يعمل على إيقاظ الروح لدى المسلمين.

- **العلماءُ يكمِّل بعضُهم بعضًا ليقوموا بأعباءِ رسالتهم، ويَحرِصُون على البعد عن التَّكرار والتّضادّ**، ويَنزلون لتربية الناس وتعليمهم، وإيقاظ شعورهم، ونفخ روح الإيمان في مدارسهم ومساجدهم ومنتدياتهم.

---

(١) أي هذه الأمّة.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند (ح ١٢٩٠٤) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (ح ٣٨٤٦) واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد في المسند (ح ٤٣) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

- **وهم الذين يعملون على إعادة الثقة بهذا الدين لدى عامة المسلمين، ويُبيِّنون لهم مكانتَهم العالمية** وشدّةَ حاجة البشرية جميعا إلى ما عندهم من الإيمان والنور، ويوضحون أن بقاء العالم مرهون بوجود المسلمين، ويُرسِّخون لدى الشباب أنّ العالم بأسره مُحتاج إلينا نحن المسلمين، فيعيدون لهم العزة والثقةَ بدينهم ويزرعون الرحمة للعالمين في نفوسهم.
- **يسلُكُ العلماءُ في إصلاح الناس وقيادتهم نحوَ النهوض جميعَ السبل** والوسائل المؤثرة والجذابة والمحبّبة لعموم أفراد الأمة، مما يتوافق مع شرع الله تعالى.
- **يقومُ العلماء بصناعة الحلول للأحداث الكبرى** التي تُهِمّ المسلمين ويعملون على توحيد كلمتهم نَحْوَها، وإحياء روح الأمل في الأمة وزرع الثقة في نفوسهم، ويرسُمون لهم خِطَط استثمار الفرص للإسراع في نهوضهم.
- **تنصَبُّ عناية العلماء بالمناهج التي تبني العقيدةَ، وتُنَمِّي الفقهَ في الدين،** وتُحافظ على كِيَان الأمة وتَبُث الحيوية والعزة والشموخ في نفوس التلاميذ.
- **يهتم العلماء بإيصال الدعوة إلى مراكز التأثير من السياسيين والكتاب والإعلاميين،** وإثارةِ روح التحدي لدى الساسة خاصة، وتذكيرهم بماضيهم وأمجاد أجدادهم، وما ينتظره المسلمون منهم، ويعملون على إيقاظ العزة في صدورهم، وبيان الخطر المُحدِق بهم،

وتهوين شأن الغرب في نفوسهم، ويكررون الزيارات لهم وإرسال المخاطبات إليهم.

- **وهم الذين يَنأون بالمسلمين عن الفتن**، ويتخذون لهم المواقفَ الشرعية عند إثارة الطائفية في بلدانهم، مع ضبط الكلمة أثناء الفتن من الانحراف بتصحيح معتقد فاسد، أو تهوينٍ من أهمية معتقد صحيح، أو تسويغٍ لسلوك فاسد، أو التقليل من أهمية حكم شرعي ثابت، مع ضبط النَفس وتقدير الأمور ومعرفة حدود الضرورات عند الأحداث الدموية، مهما بلغ الحماسُ للدين والغَيْرَةُ عليه، فالتمسك بالشرع هو سِمَتُنا وسبيل عِزِّنا وعلامةُ صحة إسلامنا.
- **يعمل العلماء الربانيون على مواجهة موجات التغريب والإفساد** التي تقف حجر عَثْرَةٍ في طريق النهوض بالأمة، وذلك بإنشاء المؤسسات العلمية والدعوية والتربوية وحشدِ الجموع لها، وتيسير وصول العلم إلى جميع الناس؛ فإنّ العلم لا يَهلِك حتى يكون سرا.
- كما **يعتنون بالوقوف في طريق القوانين الوضعية** التي يقصد بها الإضرارُ بالمسلمين في بلاد الأقليّات وغيرها، واتخاذِ جميع الوسائل المشروعة والنافعة لإلغائها وإبطالها.

هذا الحديثُ ليس ضربا من الخيال! أو أمنية في النفس!، بل هو واقع ملموس سجَّلَهُ جِلَّةٌ من علماء الإسلام عبر جميع العصور، فكانوا هم المجدِّدين لما اندرس منه في صدور الناس وواقعهم، كما أخبر عنهم

النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مائة سنةٍ مَن يُجدِّد لها دينها)[1].

والمجددون والمصلحون من علماء الإسلام يَفُوقُون الحصر؛ فالعلماء هم صُناع الحياة السعيدة للبشرية.

(١) أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت:٢٧٥هـ) في السنن (ح ٤٢٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.

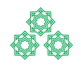




أمثلة من علماء النهضة الإسلامية

اخترت هذين الرجلين العظيمين من العصر الحديث حتى يكونا أقربَ إلى الاقتداء والاهتداء بهما لقُرْب العهد وتَشابُهِ البيئات والظروف التي عاشوا فيها بواقع الأمة اليوم، لِما في ذلك من قطع الأعذار، ومنع التخاذل والتقاعس الذي يُلقيه الشيطان في نفوس بعض الخيِّرين! فيصوِّر لهم أنّ هذا الواقع لا يمكن تغييره إلا بأمر كوني! ولم يمرّ على الأمة مثله!!.

الأول منهما في المغرب، في بلاد العرب وقد عمل على نهضة بلده وقطره الذي وُلد وعاش فيه، والآخَر في المشرق، في بلاد العجم وقد عمِل على نهضة الأمة كلِّها فتعدى حدودَ وطنه!، وقد تعاصر الرجلان ولم يُقدَّر لهما أن يلتقيا.







المثال الأول:
ابن باديس رائد نهضة الجزائر

لقد كانت الجزائر وتونِس والمغرب في مَطلع القرن العشرين الميلادي تَرزَح كلُّها تحت نَيْرِ الاحتلال الفرنسي الذي عمِل بكل جهوده وخصوصا في الجزائر على محو الإسلام، واقتلاعِ جذور العروبة من الأساس، ونشر الرذيلة وطمس الفضيلة من البلاد، وقد تجلت خِطّة الاستعمار في الأمور التالية:

١ - **التجهيل** ولهم فيه أساليب عدّة، وقد وصلت نسبة الأمية في الرجال إلى ٩٥٪! وفي النساء إلى ٩٩٪[١].

٢ - **الفرنسة**: فأُلغيَ التعامل باللغة العربية في جميع أجهزة الدولة المستعمرة وقطاعات التعليم، ونصوا على أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر لا يجوز تعلمها وتعليمها إلا على هذا الأساس، وغُيِّرت

---

(١) انظر كتاب: (الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة) ص ٩٣، تأليف تركي رابح الأستاذ بجامعة الجزائر وجامعة الرياض، ط الأولى عام ١٤٠٣هـ، الرياض.

أسماء المدن إلى أسماء فرنسية، تحمل كل مدينة اسماً لقائد فرنسي، واستُبعدتْ دراسةُ التاريخ الإسلامي والعربي، وألغيتْ دراسةُ جغرافية الجزائر والأقطار العربية والإسلامية[١].

٣ - **التنصير**: فقد استولت الدولة على المساجد وحَوّلت كثيراً منها إلى كنائس!، وجمعت الأطفال اليتامى على القساوسة لتنصيرهم، حتى قالوا: «علينا أن نجعل الأرض الجزائرية لدولة مسيحية»[٢].

٤ - **الإفقار**: وذلك بالاستيلاء على أملاك الناس ومَزارعهم وأوقافهم، وفَرْضِ الضرائب على بقية الأراضي والمساكن التي أبقتها في أيدي الجزائريين[٣].

ويختصر لنا أحدُ ساسة فرنسا ما وصل إليه الأمر في الجزائر بقوله في المهرجان المئوي لاحتلال الجزائر أمامَ حشود من الأمم المشاركة في المهرجان: «لا تظنوا أنّ هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثةَ قرون ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أنّ مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»[٤].

---

(١) تركي رابح ص (٧٢، ٤٩، ٩٤).

(٢) تركي رابح ص (٩٥).

(٣) تركي رابح ص (٩٥).

(٤) انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (ت: ١٣٨٥) ٥/٢٨٤، جمع وتقديم ابنه أحمد الطالب الإبراهيمي، ط الأولى عام ١٩٩٧م، دار الغرب الإسلامي.

ومن هنا نعلم المكر الكبّار والكيد وقوة العدو مع ضعفٍ في الأمة وقلةٍ في إمكاناتها، وتشتُّت شملِها، وانتشار الجهل والخرافة في عامة القطر الجزائري، فتتجلى عظمة العمل الذي قام به الإمام ابن باديس عليه رحمة الله.

من هو ابن باديس؟

هو عبد الحميد بن محمد بن المصطفى بن مكي بن باديس، ولد في سنة ١٣٠٨هـ، الموافق ١٨٨٩م في مدينة قُسَنطِينَة بالشرق الجزائري[١].

طلب العلم منذ صغره، وأتم حفظ القرآن الكريم وقُدِّم ليصليَ بالناس ولم يتجاوز الرابعةَ عشرة من عُمره، وأخذ الحديث وعلومَ اللغة والأدب والنحو والصرف على يد شيخه **حمدان لونيسي**، وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره زوَّجه أبوه، ثم سافر ابن باديس إلى جامع الزيتونة حين بلغ التاسعة عشرة من عمره وتلقى العلم على علمائها وعرف بالجد والاجتهاد[٢].

ثم عاد إلى بلده سنة ١٩١٣م، ثم رحل إلى الحج في السنة نفسِها وزار المدينة النبوية، وتلقى العلم على علمائها ومنهم شيخه **حمدان لونيسي** الذي أشار عليه بالهجرة إلى المدينة وقطع كل علاقة له بالوطن،

(١) انظر كتاب: (ابن باديس (ت: ١٣٥٩هـ) حياته وآثاره) ١/٧٢، جمع ودراسة عمّار الطّالبي، ط الثانية عام ١٤٠٣هـ، دار الغرب الإسلامي.

(٢) آثار ابن باديس ١/٧٤.

ومنهم شيخه **حسين أحمد الهندي** الذي أشار عليه بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الطاقة، وقد دَرَس ودرَّس في المسجد النبوي الشريف ورجع إلى بلده في العام نفسِه[1].

التخطيط لنهضة الجزائر

كان ابن باديس يُقلِقه وضعُ بلده وسيطرةُ الفرنسيين عليه، فشاء الله أن يلتقيَ رجلا يشاركه الهمَّ من أهل بلده، ولم يتعرَّفْهُ إلا في المدينة سنة ١٩١٣م، وهو محمد البشير الإبراهيمي[2] الذي اتخذ من المدينة موطنا له بأمر من أبيه للسكن بجانبه.

يقول الإبراهيمي عن هذا اللقاء: (كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، أن يَرِد علي أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس... كنا نؤدي فريضة العشاء الآخرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي فنسمَر مع الشيخ ابن باديس مُنفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد...إلى نهاية ثلاثة أشهر التي أقامها الشيخ ابن باديس في المدينة، كانت هذه الأسمارُ المتواصلة كلُّها تدبيراً للوسائل

(١) تركي رابح ص٢٦.

(٢) ولـد الإبراهيمي عام ١٣٠٦هـ وحفظ القرآن ومتون العلم الكبيرة وهو ابن تسع سنين، وهبه الله حافظة خارقة وذاكرة عجيبة تصدر للتدريس وهو ابن أربع عشرة سنة، نظم ملحمة بلغت ستة وثلاثين ألف بيت من الرجز، تضمنت فنونًا من المواضيع. انظر: آثاره ٥/٢٨٩ وما بعدها. وتوفي رحمه الله تعالى عام ١٣٨٥هـ آثاره ٥/٢٨.

التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصَّلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلُّها صُوَراً ذهنية تتراءى في مَخِيلَتَيْنا، وصَحِبَها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بِضْعَ عَشْرَةَ سنةً، وأُشهِد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م)[١].

عناصر الخطة

وقد اتفقا في الخِطَّة على الأمور التالية:

- دراسة الوضع القائم في الجزائر ووَضْع تصوُّر شامل للحالة الراهنة في البلد.
- وضع الأهداف الشاملة.
- وضع البرامج المفصلة التي تنهض بالجزائر.
- تحديد الوسائل الشاملة لهذه البرامج[٢].

الأهداف

وإذا استقرأتَ سيرتَهُم وجُهودَهُم وجدتَ خِطَّتَهُم ترتكز على الأهداف التالية:

(١) انظر آثار الإبراهيمي ٥/٢٧٨.

(٢) انظر آثار الإبراهيمي ٥/٢٧٨.

- **نشرِ اللغة العربية**؛ لِعلْمهم أنّ أكبرَ الاستعمارِ وتبديلِ الْهُويّة هو من جهة اللغة.
- **تربيةِ الناس على العقيدةِ الصافية.**
- **نشرِ العلم الشّرعيّ في أوساط المجتمع.**
- **نقدِ الطُّرُقيِّين وبيانِ ضلالهم، وفضحِ عَمالتهم للفرنسيِّين.**
- **زرعِ مُعاداة المستعمر في قُلوب النَاس، وأنه مفسدٌ للبلد يجبُ إخرَاجُه منها.**

مميزات الخطة

لقد امتازت هذه الخِطَّة بالإحكام، والدِّقَّة، وبُعْد النظر، واستشراف المستقبل، ووصْفِ العلاج الناجح وهو نشر العلم وتربية الناس عليه، وتعتبر هذه الخِطَّة لنصف قرن من الزمن، في وقت لا توجد فيه مراكز أبحاث ولا وسائلُ اتِّصال وتقنية، ولكن بصيرة العلم وصدق النية والهمة في العمل مع توفيق الله أدَّت إلى ما هو أعظَمُ مما تُنتِجُه مراكزُ الأبحاث والأجهزة المتطورة.

وقد نصت الخِطَّة في تربية النشء على أن لا يتوسعا له في العلم وإنما يربونه على عقيدة صحيحة، ولو مع علم قليل[1].



(١) انظر آثار الإبراهيمي ٥/٢٨٠.

تحديد مكمن الداء

يقول الإبراهيمي: (...كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائريّ بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة أنّ البلاء المنصبَّ على هذا الشعب المسكين آتٍ من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضحَ: من استعمارين مشتركين يمتصان دمَه، ويتعرَّقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه : استعمار ماديّ هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثله مشايخُ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، والمتاجرون باسم الدين المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية... والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوّته، ومظهرهما معاً: تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة...).

تنفيذ الخِطّة في أرض الواقع

تميز تنفيذ الخِطَّة بالتأني وجودة البناء، فلم يستفزه الفرنسيون فيغيِّرَ خِطَّتَهُ ويستعجلَ النتائج، ولم يَحملْهُ حماسُ الشبابِ والطلابِ واندفاعُهم على قفز المراحل والإسراع في التنفيذ.

فمنذ أن وطئت أقدام ابن باديس أرض الجزائر شرع في تنفيذ الخِطّة التي اتفق عليها مع الإبراهيمي فشرع في التعليم في مسجده في قُسَنْطِينَة[1].

(١) انظر: آثار الإبراهيمي ٥/٢٧٩.

وقد مر تنفيذ الخِطَّة بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى من الخطة : (من سنة ١٩١٣-١٩٢٥م)

وقد لَقِيتْ هذه المرحلةُ من الشَّيخ اهتمامًا بالغا بتعليم الصِّغار والكبار، مع الاهتمام بالتربية الدينية والأخلاقية والسياسية للشعب الجزائري، فكانت دروسه في التفسير والحديث حيّةً وعامرةً تبعث الحياة في الجماد!، وفتح دروسا نظامية في الصباح للطلاب الذين تقاطروا عليه من الجبال والوديان ممن سبق أن اختارهم حين تَجْوَالِه في قرى مدينة قُسَنْطِينة، فكان مشتغِلا بالتعليم **من بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء**[١]. وكان له اهتمامٌ عظيم بتعليم الأطفال وتربيتهم فقد ركز على تعليم صغار الكتاتيب القرآنية[٢].

في هذه المرحلة رجَع الشيخُ الإبراهيميّ إلى الجزائر سنة ١٩٢٠م فواصَلَ مع الشيخ ابن باديس مشروعه في التعليم والتدريس وإلقاء المحاضرات فبدأ بتنفيذ الخِطَّة المتفق عليها في بلدته «سَطِيف» فالتفَّ عليه الناس وبدأ نشاطه التعليمي على منهج ابن باديس **من بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء**، وبعد العشاء يذهب للنوادي فيلقي فيها المحاضرات عن التاريخ الإسلامي.

(١) تركي رابح ص ١١٩.

(٢) آثار ابن باديس ٣/٢٦٨.

متابعة الخطة وتقويمها

وكانا يلتقيان ما بين سنتي ٢٠ـ١٩٣٠م في كل أُسْبُوعَين أو كل شهر على الأكثر؛ للمتابعة والنظر في النتائج ووضع البرامج المستقبلية، يقول الإبراهيمي عن هذه اللقاءات المتعددة طوال هذه السنوات: «فكنا نتلاقى، فنزن أعمالنا بالقسط ونزن آثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبدا، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجآت حسابها...»[١].

نتائجُ المرحلة الأولى

- تكوين جيش عظيم من الطلبة حتى ضاقت بهم المدينة[٢].
- تخريج كوكبةٍ من الطُّلاب البارزين في الثقافة والأدب والشعر والخطابة وصَفَهُم البَشير بقَولِهِ: «رأيت شُبّانًا مِمّن تخرَّج على يَدَيْ هذا الرَّجل (يعني ابن باديس)، وقد أصبحوا ينظمون الشِّعر العربي بلغة فصيحة، ومعانٍ بليغة، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة، ورأيت جماعةً أخرى منهم وقد أصبحوا يُحبّرون المقالاتِ البديعةَ في الصُّحف والمجلات، وآخرون يَعْتَلُون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القولَ المؤَثِّر، والوصفَ الجامع، ويصفون الدواءَ الشافيَ بالقول البليغ...

(١) آثار الإبراهيمي ٥/٢٨٠-٢٨٣.

(٢) آثار الإبراهيمي ٥/٢٧٩، وتركي رابح ص٧٤.

واعتقدت من ذلك اليوم أنّ هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها، وأنّ هذه الخُطوة المسددة التي خطاها ابنُ باديس هي حجرُ الأساس في نهضة إسلامية عربية في الجزائر، وأنّ هذه المجموعة من التلاميذ التي تُناهِز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر»[1].

المرحلة الثانية من الخطة: (من سنة ١٩٢٥-١٩٣١م)

فحين استيقظ الوَعْيُ الشعبي، وانتشر تلاميذُ الشيخ في كل مكان من أرض وطنه يُعلّمون الناس ويعظونهم ويبنون المساجد والمدارس، ويؤسسون النوادي الثقافية، حينئذ رأى ابنُ باديس مع زميله توسيعَ نطاق دعوته لتشمل الشعب الجزائريَّ كلَّه!.

فعَمَد إلى أكثر الوسائل انتشارا وتأثيرا آنَ ذاك وهي الصحافة، فاستصدر تراخيصَ لعددٍ من الصُّحُف؛ تحسُّبا لإيقاف الحكومة لها، فأصدر جريدة المُنتقِد سنة ١٩٢٥م، وكانت جريدةً جريئةً في انتقادِ الطُّرق الصوفية الغالية التي ترفع شعار «اعتَقِد ولا تَنتقِد»، وركزت أيضا على انتقادِ وتعرية الاستعمار، وقد ضاق الاستعمارُ بها ذَرْعا فأوقَفَها بعد صدور ١٨ عددا منها، فأصدر الشيخ جريدة الشهاب الأُسبوعية في السّنَة التي أوقفت فيها المُنتقِد، وكان شعارُها «لا يَصلُح آخِرُ هذه الأمة إلا بما صَلَح به أوّلُها»[2].

(١) آثار الإبراهيمي ٥/٢٧٩، وتركي رابح ص٧٤.

(٢) تركي رابح ص٧٥.

نتائج المرحلة الثانية من الخطة

- تأسيس المدارس والمعاهد العلمية لتربية الأجيال.
- تكوين المطابع لإحياء الثقافة العربية والإسلامية.
- إصدار المجلات والجرائد للتكوين العقدي والفكري والسياسي.
- تأسيس المساجد والنوادي لتربية الشباب والرجال والنساء[(١)].

المرحلة الثالثة: (من سنة ١٩٣١م)

وكان من أبرز الأعمال في هذه المرحلة:

تكوين جمعية العلماء

يَصِفُ الإبراهيميّ النتائجَ الباهرة للمرحلة السابقة وتَهْيئتَها للمرحلة التالية فيقول: «أصبح لنا جيشٌ من التلاميذ يحمل فكرتنا وعقيدتنا، مسلَّحٌ بالخُطباء والكُتّاب والشعراء، يلتفُّ به مئاتُ الآلاف من أنصار الفكرة وحَمَلة العقيدة، يجمَعُهم كلَّهُم إيمانٌ واحد، وفكرة واحدة، وحماسٌ متأجِّج، وغضب حاد على الاستعمار»[(٢)].

لقد أعدَّ ابنُ باديس والإبراهيميّ لقيام جمعية العلماء وهُما في المدينة قبل ثمانيةَ عشر عاما!، وكانت المراحلُ السابقة تمهيدًا لقيام هذه الجمعية، وهذا يَعني التخطيطَ الرشيد، والرؤيةَ البعيدة واستشرافَ

(١) تركي رابح ص ٥٦.
(٢) آثار الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٠.

المستقبل، والتأنِّيَ في التنفيذ، ودقّةَ المتابعة، ورحابةَ الصَّدر وسعةَ الأفق التي تمتع بها الإمامان ابنُ باديس والإبراهيمي.

بعد أن توفر العدد الكبير من أتباع ابن باديس والإبراهيميّ عمِلوا على تحرير قانون أساسي لجمعية العلماء مبنيٍّ على قواعدَ من العلم والدين، لا تُثير شكّا ولا تُخيف الحكومة الفرنسية، وأرسلوا دعوةً باسم الأمّة لجميع فقهاء وعلماء الجزائر، وكان من حسن الحظ أنّ الجميع استجاب للدعوة؛ لأنها لم تكن باسم ابن باديس ولا الإبراهيميّ، واجتمع الجميع في يومها المقرر لها، وفي هذا الاجتماع خطب فيهم ابنُ باديس، وطلب منهم انتخابَ رئيسٍ للجمعيّة ونائبٍ له، فاجتمعوا عليه؛ نظرا لقوته العلميّة ولِمَا بَهَرَهُم به من الفهم والفصاحة، واختاروا الإبراهيميَّ نائبا له، على أن يضع لها لائحةً داخلية، وصدر قانون بها، وانتُخب المجلس الإداريّ لها من تلاميذ ابن باديس وزملائه.

ولم تتأخر السلطات الفرنسية في منح الجمعية الترخيصَ الرسميَّ بعد أيام من تقديم طلبها إثْرَ انتهاء الجلسات التمهيدية، وفي ٤ من صفر سنة ١٣٤٩هـ/ ٢٢ مايو سنة ١٩٣١م حصلت على التصريح من الحاكم العام، ونُشِرَ في الجريدة الرسمية.

من أسبابِ سُرعة خُرُوج التّرخيص ما يلي

١. الاحتفال المئويّ وما صاحَبَهُ من استفزازِ عواطفِ الشّعب الجزائريّ.

٢. انضمام غيرِ الإصلاحيِّين إليهم، مثل رؤساء الزّوايا والموظّفين

الدينيين، طمَعاً أن يُؤدِّيَ اشتراكُهم إلى السيطرة على الجمعية واحتواءِ الحركة الإصلاحية.

٣. ربما اعتقدَتْ فرنسا أنّ العلماء في ذلك الوقتِ لا يُشكِّلُون خَطَراً عليها.

أسس جمعية العلماء وأصولها

لخص الشيخ عبد الحميد بنُ باديس الأصول التي أسست عليها جمعية العلماء بقوله:

١. الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع الرسل، وكمَّله على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا نبي بعده، الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به، والقرآن هو كتاب الإسلام، والسنة القولية والفعلية الصحيحة تفسيرٌ وبيانٌ للقرآن.

٢. سلوك السلف الصالح - الصحابة والتابعين وأتباع التابعين - تطبيق صحيح لهدي الإسلام، وفُهُوم أئمة السلف الصالح أصدقُ الفُهُوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة.

٣. البدعة كلُّ ما أُحْدِثَ على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلُهُ، وكلُّ بدعة ضلالة.

٤. المصلحة كلُّ ما اقتضته حاجة الناس في أمْرِ دنياهم ونظامِ معيشتهم وضبطِ شؤونهم وتقدُّمِ عُمْرانهم مما تُقِرُّهُ أصولُ الشريعة.

٥. أفضلُ الخَلْقِ هو مُحمّد صلى الله عليه وسلم، وأفضل أمتِهِ بعده

السلفُ الصالح؛ لكمال اتباعهم له، وأفضلُ المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون، فحظُّ كلِّ مؤمن مِن ولاية الله على قدر حظِّه من تقوى الله.

٦. التوحيدُ أساسُ الدين، فكل شرك في الاعتقاد أو في الفعل فهو باطل مَردودٌ على صاحبه، والعملُ الصالح المبنيُّ على التوحيد به وحده النجاةُ والسعادة عند الله، واعتقادُ تصرُّفِ أحَدٍ مِن الخلق مع الله في شيءٍ ما شركٌ وضلال، ومنه اعتقاد الغَوث والديوان.

٧. بناءُ القِباب على القبور ووَقْدُ السُّرُج عليها والذّبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلالٌ من أعمال الجاهليّة، ومضاهاةٌ لأعمَالِ المشركين، فمن فعله جهلاً يُعلّم، ومن أقره ممّن يَنتسب إلى أهل العلم فهو ضالٌّ مُضل.

٨. الأوضاعُ الطُّرُقيّة بدعةٌ لم يَعرِفها السلف، ومَبناها على الغلوِّ في الشيخ، والتّحيّز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ... إلى ما هنالك من استغلالٍ ومن تجميدٍ للعقول وإماتةٍ للهمّ وقتلٍ للشعُور وغيرِ ذلك من الشرور.

٩. ندعو إلى ما دعا إليه الإسلامُ وما بَيّناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة، وهدي السلف الصالح من الأئمة، معَ الرَّحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان.

١٠. الجاهلون المَغرورون أحقُّ الناس بالرحمة، والمعاندون والمُستغِلّون أحقُّ الناس بكل مَشروعٍ من الشدة والقسوة.

١١. عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كلّ خلاف يُفرِّق الكلمة ويَصْدَعُ الوحدة ويُوجِد للشر ثغرة، ويَتحتَّم التآزُر والتَّكاتُف حتى تَنفرِجَ الأزْمَةُ وتزولَ الشدة بإذن الله، ثم بقوّة الحق وأدرُع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

الجانب التطبيقيّ للسنَة الأولى لجمعية العلماء

لـخَّص الإبراهيمي ذلك بقوله:

١. تكوينُ الشُّعَب في كل مدينة وقرية لتنفيذ مقاصد الجمعية.

٢. انتشارُ أعضاء الجمعية في القطر كله يباشرون بأنفسهم الإرشاد والوعظ، ويزرعون الوعي، ويراقبون حركة التعليم.

٣. تنظيمُ حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدين بواسطة الخُطَب والمحاضرات، ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة حتى في الأسواق، والمقالات في جرائدنا الخاصة التي أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحية.

٤. الشروعُ عاجلاً في التعليم العربيّ للصغار في ما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الآباء؛ ربحاً للوقت قبلَ بناء المدارس.

٥. تجنيدُ المئات من تلامذتنا المتخرجين، ودعوةُ الشُّبّان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

---

(١) آثار ابن باديس ٣/١٣١.

٦. العملُ على تعميم التعليم العربي للشُّبّان على النمط الذي بدأ به ابنُ باديس.

٧. مطالبةُ الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها؛ لنستخدمَها في تعليم الأمة دينَها، وتعليم أبنائها لُغتَهم.

٨. مطالبةُ الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزعتها على معمريها - وهم ممن استقدمتْهُم فرنسا من مختلِفِ الدُّوَل الأوربية، ووطّنَتْهم بالجزائر، ومكنتْهُم من نهب خيرات البلد - لتُصرَفَ في مصارفها التي وُقِفتْ عليها، وكانت من الكثرة بحيث تُساوي ميزانية دولة متوسطة.

٩. مطالبةُ الحكومة باستقلال القضاء الإسلاميّ في الأحوال الشخصية مبدئيّا.

١٠. مطالبةُ الحكومة بعدَمِ تدخُّلِها في تعيين الموظفين الدينيِّين[١].

السنة الثانية للجمعية

مضتِ السنةُ الأولى من حياة الجمعية دونَ صراعٍ كبيرٍ بينَ المصلِحينَ وبينَ الطرقيِّين والموظفين الرسميين، حتى إذاً حلَّ موعدُ الاجتماع العموميّ في ١٧ محرم ١٣٥١هـ، ١٩٣٢/٢/٢٣م لانتخاب المجلس الإداريّ الجديد حدثت خلافاتٌ كانت نتيجتُها خروجَ الطرقيِّين من الجمعية؛ وذلك لفشَلِهم في السيطرة على المجلس الإداريّ، وهكذا

(١) آثار الإبراهيمي: ٥/٢٨٢.

خرج الطرقيُّون من الجمعية يُؤيّدُهم بعضُ علماء الدين الموظفين لدى الإدارة الفرنسية، فأسّسوا جمعيةً مناهضة لجمعية العلماء أسمَوْها: **جمعية علماء السنة.**

وقد أخذتْ هذه الجمعيةُ على عاتقها محاربةَ جمعية العلماء، فأصدرَتْ صحيفةَ الإخلاص في رجب سنة ١٣٥١هـ، ثم صحيفةَ المعيار بعدها بأيام، وأخذَتْ تَكيلُ التُّهَمَ لجمعيةِ الإصلاح بأنهم وهّابية، وأنهم عُمَلاء للشرق، وأخذَتْ تُطالبُ الشعبَ والإدارةَ الفرنسية بإنزال أشدِّ العقوبة بالجمعية، واستخدَمُوا أسلوبَ إرسالِ الوفود إلى المسئولين الفرنسيين لاستثارتهم ضدَّ جمعية العلماء، وكان مما تقدَّموا باقتراحه على الوالي من قبل فرنسا أن يُصدِر أمراً بمنع الكلام في المساجد إلا لموظفي الديانة الرسميين، ولم تمض ثلاثةُ أشهر على هذا الاقتراح حتى أخذت به الإدارة الفرنسية، فأصدرت المنشورات المعروفة باسم منشورات ميشال في ١٨ شوال ١٣٥١هـ.

وثارت نَخْوةُ الأمّة ردّا على منع الاحتلال الفرنسي لعلماء الجمعية من إلقاء الدروس والمحاضرات في المساجد الواقعة في قبضته، فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجدا حرًّا في سنة واحدة في أمهات القرى[١].

وقد استمر الصراع بين الطرقيين وجمعية العلماء مع انقسام الطرقيين على أنفسهم في هذه المسألة، وقد أنشؤوا منظمتين وناديًا وصحيفة، وقد كانت موضوعات صحف الطرقيين والرسميين تتركز

(١) آثار الإبراهيمي: ٥/٢٨٢، ٢٨٣.

على محاربة وجهة نظر جمعية العلماء المسلمين حول المرأة والتجنس بالجنسية الفرنسية والعقيدة.

ورغم ذلك كله لم يحظوا بالشعبية والإقبال اللذين حظيت بهما محاضرات ودروس مشايخ جمعية العلماء.

نتائج الاجتماع الثاني لجمعية العلماء

عُقِد الاجتماع الثاني لجمعية العلماء وأُبقي على جميع الأعضاء السابقين، وكان من أبرز ما نتج عن الاجتماع:

١. انضمامُ أعضاء جُدد للجمعية.
٢. زادت ثقةُ الأمة بالجمعية وأعضائها.
٣. زال تردُّد بعض العلماء فانضموا إلى الجمعية.
٤. تعيينُ العلماء الكبار في عواصم المقاطعات الثلاث ليكون كل واحد منهم مشرفًا على الحركة الإصلاحية والعلمية في المقاطعة كلها: الشيخ ابن باديس في مدينة قسنطينة، والشيخ الطيب العقبي في الجزائر العاصمة ومقاطعتها، والشيخ الإبراهيمي في مقاطعة وهران وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان.

الجانب التطبيقي للسنة الثانية للجمعية:

- قامت الجمعيةُ بالترخيص لعدة جرائد تحسُّبا للإغلاق، فأصدرت صحيفة السُّنّة، فلما أغلقت أصدرت صحيفة الشريعة المحمدية، فلما أوقفها الاحتلال أخرجت الجمعية صحيفة الصراط المستقيم، فلما

منعت أصدرت الجمعية صحيفة البصائرِ لسانَ الجمعية التي ذاع صِيتها، وكانت تحمل التوجيهاتِ والخِططَ لعموم الناس بالإضافة إلى الموضوعات العلمية والحماسية، وأقبل عامة الشعب على قراءتها[1].

- بلَغَت إدارةُ الجمعية - وهي في مُستهَلّ حياتها - من النظام والقوة مَبلغاً قويّاً بديعاً؛ حتى أصبح أعضاؤها لا يجدون تعبًا في إدارة العمل ومتابعته، فكان معظم تعبهم في التنقُّل بين المدن وإلقاء الدروس العلمية واللقاءات، أما الحكومة الاستعمارية فبنوا أمرهم من أولِ يومٍ على الاستخفاف بها وبقوانينها.

وقد كانوا يعلنون في جرائدهم كلّ أسبوع بأن القوانين الظالمة لا تستحق الاحترام من الرجال الأحرار، وأنتم أحرار فلتفعل فرنسا ما شاءت، وكان هذا الكلام ومثله أنكى عليها من وقع السهام، لأنها لم تألف سماعه، وحينَ بدأت نذُرُ الحرب (العالمية الثانية) تظهر وغيومُها تتلَبّد اجتمع الشيخ ابن باديس بالإبراهيمي في داره بتِلِمْسان، فقرَّرا ماذا يصنعان إذا قامت الحرب، وقرّرا مَن يَخلُفُهما إذا قُبض عليهما، وقَلَّبا وُجوه الرأي في الاحتمالات كلِّها، وقَدرا لكلِّ حالة حُكمَها، وكَتبا كل ما اتّفقا عليه في نسختَين.

واستمرت الجمعية في نشاطها وقوتها في نشر العلم ومقارعة أهل الباطل طَوَالَ حياة ابن باديس عليه رحمة الله.

وقد هاجم الاستعمارُ الجمعية بقرار جديد في يوم ٧ ذي الحجة

(١) انظر: (جمعية العلماء) مازن المطبقاني ص ١١٨.

١٣٥٧هـ، ٨مارس ١٩٣٨م، أصدره رئيسُ الوزراء الفرنسي (شوطان)، ويتلخَّص فيما يأتي:

١. أنّ افتتاحَ أيٍّ مدرسةٍ خاصة دونَ تصريحٍ يُعَدّ أمراً غيرَ قانوني، ويستحق مُرتكبُهُ العقوبة.

٢. مراقبة المدارس الخاصة الموجودة.

٣. إعطاء حكومة الجزائر السلطة لإغلاق أي مدرسة إسلامية يتهم مدرسوها بأن لديهم أي ميول وطنية.

وكان ردُّ الجمعية قوياً وقد تمثل فيما يأتي:

١. صرَّحَ رئيسها ابنُ باديس بقوله: «إننا عقدنا العزمَ على المقاومة المشروعة، وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغْم كلِّ ما يصدُّنا عن ذلك».

٢. وجهت الجمعيةُ النداءَ إلى كلِّ معلم، أو مدرسةٍ طلبت الرخصةَ من الإدارة ولم تُجَبْ، وكلّ معلّم قرآن أو مدرسةٍ مُنعتْ من التّعليم، وكلّ معلّم نُزعت منه رخصتُهُ أن يكاتبَ الجمعيةَ بما وقع له، ويعرّف بتفاصيل ذلك؛ لتقوم الجمعيةُ بالدفاع عنه بالطرق المشروعة.

٣. أبدت الجمعية استعدادَها للدفاع عن أيّ معلم تعرَّض للاعتداء من قِبَل السلطات.

٤. الجمعيةُ سوف تقوم بإرشاد أيٍّ جهة أو جماعةٍ تنوي تأسيسَ جمعية، أو فتْحَ مدرسة لتعليم الإسلام والعربية إلى الاجراءاتِ اللازمة لذلك.

وما أن بدأت الإدارةُ الفرنسية بتطبيق قرار (شوطان) حتى أغلقت الكثيرَ من المدارس الإسلامية واعتقلت عدداً من العلماء.

الهزة الكبرى التي أصيبت بها جمعية العلماء

في سنة ١٩٤٠م توفي الشيخُ ابن باديس رحمه الله بمرض السّرَطان الذي أصابه منذ سنوات! ومنعه انهماكُه في التعليم مِن التفكير في علاجه، ونُفي الإبراهيمي إلى الصحراء.

ثم انتُخِب الإبراهيميّ رئيسًا للجمعية وهو في المنفَى، وما إن أُطلِق سراحُه حتى واصل النشاطَ الذي كان عليه ابنُ باديس في الحركة العلمية والعملية، فنشِطتْ حركة إنشاء المدارس، فأَنشأت الأمّةُ من مالها في سنة واحدةٍ ثلاثًا وسبعين مدرسة في مدنِ وقُرى الجزائر!، على طراز واحد، ثم تنافس الناس في بناء المدارس حتى زادت على أربعمائة مدرسة! وبلغ عدد تلامذتها مئاتِ الآلاف بين بنين وبنات، وبلغ عدد معلميها ألفاً وبضعَ مئات، وبلغت ميزانيتها الخاصة مائة مليون فرنك وزيادة[1].

نشر التعليم العربي والإسلامي بين المقيمين في فرنسا

لم تكتف الجمعية بنشر العلم في الجزائر، بل امتد نشاطهم إلى الجزائريين المقيمين في فرنسا؛ لربطهم بلغتهم ودينهم الإسلامي، فقامت الجمعية بتأسيس النوادي للقيام بالتعليم والوعظ والإرشاد، وربط الجزائريين بوطنهم.

(١) آثار الإبراهيمي ٥/٢٨٥، ٢٨٦.

ومن العلماء الذين أوفدتهم الجمعية: الفضيل الورتلاني، والسعيد الصالي، وحمزة أبو كوشة وغيرهم.

وقد تحدث حمزة أبو كوشة في افتتاح نادي التهذيب في أولان رون عن أهداف النادي قائلاً:

«إن جمعية العلماء لا تريد إهمالكم وترككم سدى، وإن فارقتم الجزائر فهي لحقتكم إلى فرنسا، وأسست لكم النوادي التي هي عبارة عن مسجد لمن أراد الصلاة، ومدرسة لمن أراد التعليم، وناديًا لمن أراد أن يسمع الوعظ والإرشاد»(١).

وقد كانت حركة الاتصال دائمة بين هذه النوادي والجمعية الأم في الجزائر، وقد جاء في أحد التقارير الفرنسية: أن فروع نوادي التهذيب قد عقدوا اجتماعًا في شوال عام ١٣٥٦هـ ديسمبر ١٩٣٧م حضره ممثلون عن خمسة وثلاثين ناديًا.

فرنسا تلجأ إلى القتل والعنف ضد الجمعية

وقد حاوَلَتْ فرنسا كبحَ جِماح الجمعية، وحاكت ضِدَّها المؤامرات، وحاولت تَشويهَ العلماء لدى الناس باتهامهم بتهم لا تليق بهم، ووقفت ضدَّ مشروعاتهم، وأغلقت أبواب المساجد دونهم، وأصدرت قرارات سحب تراخيص مجلاتهم، فلما رأت أن هذا لا يزيدهم إلا قوة وثباتا وإصرارا على الإصلاح، انتهزت فرصة نهاية الحرب العالمية

(١) المطبقاني، ص ١١٠.

الثانية فدبَّرت ثورة مفتعلة سنة ١٩٤٥م قتلت فيها من الشّعْب ستين ألفًا وسجنت سبعين ألفًا معظمهم من أتباع جمعية العلماء! وزَجَّت بالإبراهيمي في السجن العسكري قرابةَ سنة، فخرج العلماء بعد هذه المذبحة أصلبَ عودًا وأقوى شَكيمةً وأعظمَ همّة[١].

آثار حركة العلماء

وكان من آثار حركة العلماء الذين قادهم ابن باديس رحمه الله إلى نشر العلم وتعليم الناس في جميع مدن وقرى وبوادي القطر الجزائري ما تجلَّى في الأمور التالية:

- **بث الوعي واليقَظة في الشعب** حتى عرَف ما له وما عليه.
- **إحياء تاريخ الإسلام.**
- **تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أَوْضار الضلال والابتداع.**
- **إبراز فضائل الإسلام وأخلاقه** كالاعتماد على النفس، وإيثار العزة والكرامة، والنفورِ من الذلة والاستكانة والاستسلام، ومنها أخْذُ كل شيء بقوة، ونشرُ العلم في جميع طبقات الشّعْب، وبذلُ النفس في سبيل الدين، ونشرُ التآخي والمحبة بينَ أفراد المجتمع، والتمسّكُ بالحقائق لا بالخيالات والأوهام.
- **إحياءُ اللسان العربي، والنَّخوةِ العربية.**

فأحْيَوا الشّعْبَ الجزائري بالعلم والإيمان، فعرَف نفسه، فاندفع إلى

(١) انظر آثار الإبراهيمي ٥/٢٨٣-٢٨٥.

الثورة يُحطِّمُ الأغلال، ويطلُب بدمه الحياة السعيدة، والعيشةَ الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر، حتى خرَجَتْ فرنسا من الجزائر تَجُرُّ ذُيُولَ الخيبة والهزيمة عام **١٩٦٢**م(١) بعد تسع وأربعين سنةً من بداية التخطيط في المدينة المنورة بين ابن باديس والإبراهيمي.



(١) انظر آثار الإبراهيمي ٥/٢٨٧-٢٨٨.



المثال الثاني: أبو الحسن الندوي

كانت الهند - كسائرِ بلاد المسلمين في أخريات الدولة العثمانية - تحتَ نَيْرِ الاستعمار الإنجليزي، وقد نالها ما نال غيرَها من الضّيم والظلم، والانحراف الأخلاقي والفكري، مع الفقر والكساد الاقتصادي، وثَوَرانِ النّعَرَات الطائفية والعرقية التي ما فتئ الإنجليز يُذكُونَ نارَها؛ حتى تشتغل البلادُ عنهم في مَصِّ خيراتها، والقضاءِ على قدراتها وطاقاتها، وما أن استقلّت الهند عن المستعمر حتى ثارت العرقيات، فانقسمت الهند إلى دُوَل، كان من أبرزِ أهدافها إبقاءُ المسلمين في الهند أقليّةً بين تلك الديانات المتعددة.

فتح الندويُّ عينيه على الأمة وهي تتلقى الهزائمَ تلو الهزائم من الغرب الذي أذاقها الويلات باحتلال بلادها وسرقة خيراتها، وفوق ذلك كله الغزو الفكري الذي قصد به إفساد العقائد والعقول، وإدخالُ الشبهات والشكوك، والعمل على غرس عقدة الانبهار به وبحضارته وصناعته، مما أنتج جيلا من المسلمين في بلاد العرَبِ والعجم مُلئت قلوبهم إعجابا بالغرب وتقدُّمه، وكبَّلتهم هزيمة نفسية زرعت في نفوسهم

الإحساس بالنقص والصَّغار أمام الغرب، وتضاعفت هذه الآثار على المجتمعات الإسلامية حتى انفصل الدين عن الدنيا في أذهانهم كما هو الشأن في الغرب المادي المُنحلّ. وكثيرا ما سمع الندويّ كلماتٍ من المثقفين في البلدان الإسلامية (دع الدين للمسجد)!. وكان عامة العرب إما مُعجَبًا بالحضارة الغربية أو مُتيَّمًا بالقومية العربية.

عاش النّدْوي وقتَ تمزّق الأمة وتحوُّلِها إلى دويلات مفككة تكثر فيها الانقلابات التي صَنعها (المستعمر)، وبذَر بين هذه الدويلات أسبابَ النزاع والعداوات، وأبعدَهُم عن دينهم وتحكيم شرع الله تعالى، وفرض عليهم القوانين الوضعية.

فأخذ الندوي منذُ رَيْعَانِ شبابه على كاهلِهِ إعادةَ الثقة والعزة للأمة أفرادا وجماعات، حكوماتٍ وقيادات، فأوقف نفسه على هذا المشروع مُدَافعا عن حقوق المسلمين ذابّا عن دمائهم وأعراضهم ومُمتلكاتهم، نافخا في نُفُوسهم الحماسَ والاعتزاز بدينهم، غارسا في عُقُولهم استصغارَ الغرب وقلةَ شأنِهِ، منتصِبا لتعرية حضارة الغرب وقوانينه، مستنهضا همم المسلمين ودفعهم إلى الإمام، ونظرًا لإخلاصه لوجه الله تعالى ووضوح الهدف لديه وفَّقه الله تعالى إلى تحقيق مراده، فكان له الأثر الكبير في نهضة الأمة الإسلامية كلِّها.

تلك هي أهدافُ النّدْويّ في دعوته، وتعليمه، ومؤلفاته، وتحرُّكاته، وأسفاره، ولقاءاته. حقا كانت أهداف الندوي واضحة بين عينيه مثل البوصلة، فلن تجد عملا من أعماله أو محاضرة من محاضراته تخرج عن

هذه الأهداف، فكان رحمه الله راشدا منذ ريعان شبابه، فلم يتنقل من منهج إلى آخر ولم يكن مذواقا يتذوق عملا ثم يتركه إلى عمل آخر، فلم أجد أنه ابتدأ مشروعا ولم يتمه.

من هو هذا الرجل العظيم؟

هو أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني النّدْوِيُّ، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

كانت ولادته في رَاي بَرَيْلِي في الهند بتاريخ ١٣٣٣/١/٦هـ - ١٩١٤م[١]. نشأ في بيت علم وأدب، وتُقىً وصلاح، سليل أمجاد كرام، فأبوه من العلماء، وأخوه عبد العلي ممن ترأَّس ندوة العلماء - التي نُسبَ إليها بعدُ وشُهِرَ بها -، وأمه وأخواته ممن حفظ القرآن الكريم وقام بتعليمه، وللجميع مؤلفاتٌ وكتب فيما يَهُم أمْرَ الأمة، تاريخُهم مشرقٌ في نصرةِ الإسلام والانتصارِ لقضاياه.

خصائص أسرته وميزاتها

لَخّص النّدْوي خصائصَ أسرتِه الخيِّرة في النقاط التالية:

١ - **المحافظة على نسبها**، وعدم قَبولها المصاهرة من غيرهم، وقد

(١) انظر كتاب: في مسيرة الحياة (٤٥/١) للندوي (ت: ١٤٢٠هـ)، ط الأولى عام ١٤٠٧هـ، دار القلم، دمشق. وكان قد صُلِّي عليه رحمه الله تعالى صلاة الغائب في الحرمين الشريفين.

أفاد ذلك في الحفاظ على الخصائص والتقاليد الإسلامية إلى حدٍّ كبير، حيثُ بَقِيت العقائد الصحيحة لم تنحرِف عن الجادّة، ولم تتمكّنِ البدع والأعمال الشركية من التسلل والتسرُّب إليها.

٢ - **أن شعارها الدعوة إلى التوحيد واتباع السنة المطهرة**، ومن الأدلة على ذلك أنه لا يوجد لعلماء هذه الأسرة - وهم يُعدُّون من الأولياء! - قبر مجصّص أو قبة أو عمارة على قبر، ولم يسمع عنها احتفالاتٌ بمناسبات الميلاد، أو الاجتماعُ على القبور، أو العملُ بالطقوس والتقاليد التي راجت في الهند، ومقابرهم تُشبِهُ مقبرة البقيع لا توجد عليها كتابات ولا لوحات ولا أي معالم.

٣ - **من خصائص الأسرة المميِّزة لها الرجولةُ والحميّة الدينية وعاطفة الجهاد**، وكان من نتيجة ذلك أن ظهر في هذه الأسرة قادةٌ كبار، ورجال أبطال مِن أولي العزم والهمة العالية.

وحَدَا بأحد أبناء الأسرة - وهو السيد عبد الرزاق كلالي - أن ينظم مَلْحَمةً مُؤثِّرة مثيرة لفتوح الشام باسم «صَمْصَام الإسلام»، تحتوي على خمسةٍ وعشرين ألف بيت (٢٥٠٠٠).

٤ - **أنها تؤثر الوداعة والبساطة مع الناس**، بعيدة عن ظلم الآخرين والتعالي عليهم، ويفضلون التنازل عن حقوقهم على أن يَجنُوا على غيرهم، مع مقدرتهم على أخذ حقوقهم.

٥ - **تميزت الأسرة بالعلم الشرعي** والعناية التامة بأعمال القلوب وتزكية النفوس، والاتصال بالمشايخ[1].

---

(١) في مسيرة الحياة ١/٣٣-٤٤.

طلبه للعلم

ختم القرآن في طفولته، ودَرَس في الكتاتيبِ اللغةَ الأردية والفارسية، ثم تعلَّم العربية سنة ١٩٢٤م على يد شيخه خليل بن محمد الأنصاري اليماني.

ولما بلغ الرابعةَ عشرةَ من عُمُره التحق بجامعة لكهنو.

وقرأ الصحيحين، وسننَ أبي داود والترمذيِّ على العلامة ابن صديق حسن خان، وقرأ عليه تفسير البيضاوي، وسمع منه عدة دروس في المنطق، وقد أقام عند شيخه عامين وأصبح من خاصته وأكيلَهُ وشريبَهُ.

كانت اللغة الإنجليزية (موضة) العصر، ولها صولة وجولة! فأقبل عليها الندوي بشَغَفٍ زائد! وبدأ يدرُسُها على عدد من الأساتذة.

فلمّا علمت والدته بهذا كتبت إليه رسائلَ رقيقة مرقِّقة تفيض إيماناً وغَيْرَةً على الدين، تعظِّمُ في قلبه لغة القرآن وتصغِّر في عينه لغة الكفار، واستعانت في ذلك بالدعاء والتضرُّع إلى الله، فشعر قلبُهُ فجأةً بالسآمة والفتور من المزيد في دراسة الإنجليزية، وأرجَعَ الكتب التي استعارَها إلى أصحابها، وكان قد أخذ بنصيبٍ جيّدٍ منها أهَّله للكتابة بها.

ثم رحل النّدْوي للدراسة على العلامة حسين أحمد المدني في ديوبند، حيث درس عليه الحديث وبعض علوم القرآن، ثم سافر إلى لاهور فالتحق بالدراسة النظامية المسمى «**صف العلماء**»، وكانت دراسته جادة وصعبة جداً حيث يُكلَّف الطالبُ أن يُعيد الدرس الماضي

بكلماته وعباراته ومصادره ومراجعه!، وذلك كل مرة!، ودخل النّدْوي الامتحان ونجح بتفوق عام ١٩٣٢م[١].

مشروع النهضة داخل الهند

جعل النّدْوي بثَّ روحِ العزة في قلوب الناس وانتشالَ الهزيمة النفسية من نفوسهم مِن أولوياته، فاختار شخصية الشهيد أحمد عرفان لقربه من الناس وما حققه من انتصارات رائعة على الكفار، فكتب سيرة مطولة للسيد أحمد عرفان تتحدث عن جهاده ومناقبه.

فلما أكمَلَ الكتابَ وصدرت طبعته الأولى فكأنَّ شخصاً ضَمّد جراح الأمة المكلومة، وفَكَّ إسارَها، فتهافت الناسُ على الكتاب، وقرئ في المساجد والمجامع، وتأثر به الشباب المثقَّف الذي قد يئس من حيويةِ الإسلام وصلاحيتِهِ للبقاء! ووقعوا في أَسْر الشيوعية والإلحاد، فقد ألهبَ الكتابُ فيهم روحَ الإيمان[٢].

الاهتمام بالمناهج الدراسية

كان من أولويات علماء التجديد والنهضة الاهتمامُ بصياغة أذهان التلاميذ على المنهج الإسلامي الذي يبني روح العزة والحيوية، وينأى بهم عن الهزيمة والضياع والميوعة.

(١) في مسيرة الحياة ١/٧٨-١٠٢.

(٢) في مسيرة الحياة ١/١٢٥-١٣٤.

وكان النّدْوي يرى أنّ المناهج الموجودة لا تكفي لتربية الأجيال المعاصرة، وأنه ينبغي التركيز على روايات الصحابة والتابعين والأئمة المهديين الذين كانوا يقصون ويتحدثون بسلاسة دون تكلفٍ ومحاولةِ إغراب.

فأخرج كتابه «القراءة الراشدة»، ومن بعده «قصص النبيين للأطفال»[1].

حماية عقول الناشئة من المناهج المدرسية المنحرفة

ظهرت بعد تقسيم الهند دروسٌ صريحة في الكتب الابتدائية المقررة عن الديانة الهندوكية وفلسفتها، وقصصٌ شركية خرافية، فرأى النّدْوي في هذا الصَّدد أن يقوم بعملين: أحدهما سلبي، والآخر إيجابي.

فالعمل السلبي والإداري هو أن يُطالِب الحكومة بأن تكون ـ بكل صدق وأمانة ـ عِلمانيةً لا تتدخل في الدين في سياستها التعليمية... كما كانت في عهد الانكليز... وقد أفلحت حركةُ المطالبة للحكومة مِن خلال المحاضرات، واللقاءات، والمؤتمرات، والبرقيات، وكان النّدْوي يجوبُ البلادَ طولا وعرضاً فأصبح النذيرَ العُريانَ! حتى أُجبِرت الدولةُ على إلغاء تلك الموادّ؛ **إذ كانت تلك الحركةُ فوقَ طاقة الحكومة؛ نظراً لقوتها، وضخامتها، وجودة تنظيمها.**

أما العمل الإيجابي فهو أن ينظم المسلمون بأنفسهم التعليم

(١) في مسيرة الحياة ١/١٤٤.

الابتدائي لأطفالهم، وفتح المسلمون مئات المدارس لتعليم أبنائهم...[1].

استقطاب المثقفين

في عام ١٩٤٣م أسَّس مركزَ التعليمات الإسلامية في دارٍ في وسط البلاد، وكان الهدفُ منه تعليمَ القرآن والحديث الشريف، بأسلوب تربويّ معاصرٍ يستقطبُ الطبقةَ المثقفة، وفعلاً تقاطر المثقفون عليه حتى ضاقت عليهم الدّار، فانتقلوا إلى سطحها.

وكان الانتسابُ إلى هذا الدرس مفخرةً للمثقفين، حتى بدأ بعضُهم إذا أراد أن يُبرِز نفسَه انتسب إلى هذا الدرس[2].

الاهتمام بوسائل الإعلام المؤثرة

رأى النّدْوي مع بعض أهل العلم أنّ الضرورة مُلحَّة إلى إصدار جريدة تُعْنَى بتوعية المسلمين في دينهم، فأصدر جريدة «تعمير» عام ١٩٤٨م، وكانت مقالاتُ الجريدة تنفُخ روحَ الإيمان وتَستثير الفكر والوجدان، وكان من بين تلك المقالات مقال: **العالم بحاجة إلينا**»[3]، الذي أثّر كثيرًا في نفوس الشباب. وقد كان النّدْويُّ أصدر قبلَ ذلك مقالاً انتقد فيه بِشدةٍ أوضاعَ المسلمين بعنوان: «مواضعُ ضعف في سيرتنا وشخصيتنا القومية»، نبه فيه إلى **الأمراض التالية**:

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٧٣-٢٧٥.

(٢) في مسيرة الحياة ١/١٨٠.

(٣) في مسيرة الحياة ١/١٨١.

١. إيثارِ المصالح والمنافع على الأخلاق والمبادئ.
٢. الغفلةِ عن مواجهة تحديات العدوّ العالمي (أوربا والحضارة الغربية).
٣. قلةِ العمل، والجبن، والخوف.
٤. الطاعةِ العمياء للقيادة القومية العلمانية.
٥. التبذّلِ والعاطفية الحادة في الخطب والمقالات، وإبداء العواطف والخلاف.

ثم أخرج كتابه الشهير «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**».

وكتب الله تعالى لهذا الكتاب قَبولاً عجيباً؛ إذ جاء إلى شباب الإسلام في سنينَ عجافٍ، أعاد لهم اعتزازَهم وثقتهم بدينهم، وردَّ عنهم شبهات المبطلين وحَمَلات المُغرضين.

ثم أصدر جريدة «ندائي مِلَّت» سنة ١٩٦٢م، ولقيت قَبولا واسعا في أوساط المسلمين[١].

النّدْوي والجماعات الإسلامية

انتمى الندْويّ إلى الجماعة الإسلامية التي أسسها المودودي، ثم اختلف مع المودودي وانفصل عن عضوية الجماعة الإسلامية.

لكنه كما قال: «دامت عَلاقتي بالأستاذ بعد انفصالي عن الجماعة كالعَلاقة بين صديقين كريمين قديمين، لم يكن يفرق بينهما إلا اختلافُ وِجْهاتِ النظر»[٢].

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٨٧.
(٢) في مسيرة الحياة ١/١٦٢-١٦٥.

وكان النّدْوي قد انتسب إلى كثير من الجماعات الإسلامية ثم انفصل عنها!؛ وعلل ذلك بقوله: «كما أرى من الضرورة بمكان لكل حركة ودعوة ومؤسسة – تقوم لخدمة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى – أن تستمِرَّ في النمو والارتقاء، وتطّلعَ على قضايا الحياة ومسائلها وحاجاتها، وتقضيها في حدودها المشروعة المطلوبة، وتطبّق بينها وبين الحياة، وإلاّ فإنّ تلك الحركة أو المؤسسة تتعرض للحرمان من صلاحية النمو واستمرار الحياة، وتصاب بالشلل والجمود، وتنحصر فائدتها في حدودٍ ضيقة!»[1].

استشرافُه المستقبل

اهتمَّ النّدْوي بحركة التحرير الوطنية لتطهير البلاد من الإنجليز – الذين غصبوا الهند من أيدي المسلمين، وأسقطوا الخلافة العثمانية – وكان يرى مشاركة غاندي والوطنيين في طرد الإنجليز، وأن المسلمين إذا جلسوا متفرِّجين فستكون الدائرةُ عليهم، لأنَّ الغرم بالغنم[2]!. ووقع ما توقّعه النّدْوي من صدورِ قرارات تضرُّ بالمسلمين، فكان أبرزُ ما احتجّ به على غاندي أنّهم طردوا المستعمر بشراكةٍ مع المسلمين، وأنّ الاتفاقيةَ تقضي باعطاء المسلمين جميعَ حقوقهم.

المجمع الإسلامي العلمي عام ١٩٥٩م لمقاومة الردة

أحسَّ النّدْوي بخطورة الردة الجديدة التي تجتاح بُلدانَ العالم

(١) في مسيرة الحياة ١/١٩٣.
(٢) في مسيرة الحياة ١/١٦٧-١٧٠.

الإسلامي، ورأى أنّ من الأهمية بمكان إقامةَ مُجمّع علميّ يتصدى لهذه الردة الخطيرة الشاملة، فأسّس المُجمّع الإسلامي العلمي، وقد بلغ عددُ منشوراته **قُرابةَ مائتين!**، وذكر النّدْوي أنّه ليس في شبه القارة الهندية مؤسسة أخرجت في اللغة الانكليزية - على الأقل - كُتُباً علميّةً دعوية بهذا العدد وبمثل هذا المستوى العلمي المتقدم حولَ الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية، والعقائد، والحديث والسيرة والسنة والخلفاء الراشدين مثله...[1].

الندوي يستثمر الطائفيةَ وقايةً للمسلمين

رأى النّدْوي الأخطار المحدقةَ بالمسلمين في الهند، وما يثار من عصبيات وحركات مُتطرِّفة مِن قِبَل الهِندُوس للقضاء على المسلمين، نتج عنها مجازر بشعة منها مجزرة عام ١٩٦٤، ومقتلة مصلى العيد عام ١٩٨٠م والذي قضي فيه على جميع المصلين من رجال ونساء وأطفال وأصبح الهنادكة يلعبون برؤوس المسلمين في تلك الميادين، فكانت صدمة عنيفة للندوي.

فجاء مشروعُه الهام الذي صرف فيه كثيرا من تفكيره وعمله في الهند وهو «**إحياء رسالة الإنسانية**»، لتوجيه أنظار الأغلبية غيرِ المسلمة إلى قيمة المسلمين في الكفاح الوطني، وفائدة الدور الذي يمثلونه في إنقاذ البلاد... والتوصلِ إلى قلوبها وعقولها، بطرحِ الحلول الناجحة للمشاكل المعاصرة.

(١) في مسيرة الحياة ١/١٩٣.

ولم يخْفَ عليه خطورةُ عدم فهم مراده من هذه الدعوة، يقول النّدْوي: «ولكنّ هذا العمل كان دقيقا جدا، يتطلب لباقة ومهارةً، وحيطة بالغة، وقدرةً فائقة على إبداء الآراء، وإدراك نفسية المخاطَبين، وأن أدنى مَزْلَقٍ فيه يُمهِّد الطريق إلى نظرية وحدة الأديان التي يقبلها الذهنُ الهندي بسهولة، ودعا إليها كبار زعمائها وقادتها»[١].

وقد لقيت هذه الحركةُ قَبولًا ورواجًا، وعقدت لها احتفالات في الساحات العامة يحضرها مئاتُ الآلاف من الناس!، وكان مؤتمر دلهي في عام ١٩٩٠م خير مثال للقبول والشعبية التي كانت تنالها هذه الحركة، وتأثيرِها على الناس[٢].

وعندما قتلت غاندي ١٩٨٤م على يد أحد السيخ قامتْ موجة من العُنف، وارتُكِبت ضدَّهم أنواعٌ من الوحشية والنّهْب، وشارك في بعض ذلك أفرادٌ من المسلمين!، فاشتدَّ نكيرُ النَدْوي عليهم، فكفّ المسلمون عن ذلك، وردوا ما في أيديهم، وتسامع السيخ به فجاء أعيانُهم إلى النّدْوي شاكرين ومُقدِّرين فقال لهم: «إن هذا من واجباتي الدينية والخلقية، لو لم أفعل ذلك لكنتُ مفرِّطا مشاركاً في الإثم، ومعلومٌ أنّ القرآن الكريم والسنة المطهرة قد أمرا بالقسط في الناس، قال الله تعالى: ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (المائدة: ٨)»[٣].

---

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٤٧-٢٥١.

(٢) في مسيرة الحياة ٣/٧٣.

(٣) في مسيرة الحياة ٢/٦٨-٧١.

المسجد البابري

أثارتْ قضيّةُ المسجد البابري حفيظةَ العلماء ومنهم النّدْوي، فقام بعَقْدِ عدة اجتماعات مع عدد من حُكّام الولايات من غير المسلمين!، وفي عام ١٩٨٩م وبعد فوز (وي بي سكنه) برئاسة الوزراء أرسل له النّدْوي خطابا مفصلا في القضية فقرأه ووعد بالأخذ بأكثر ما ورد فيه[١].

ثم كتبَ النّدْويُّ رسالةً للمسلمين تثبتهم على الحق، وتُعِيد الثقةَ إلى نفوسهم، وتُبيِّن لهم كيف يَستفيدون من الأحداث؟ ويوظفونها في صالحهم؟، وبيَّن موقفَ المسلمين من الفتن والمحن التي تَمُرّ بهم، وما هي وسائل التعامل معها؟ وقرئت في المساجد والمحافل[٢].

وقد أرسل النّدْوي وفدًا لمقابلة رئيس الوزراء، وفي اليوم التالي يومَ رجوع الوفد اتصل مكتب الرئيس بالنّدْويّ، وطلب منه الاجتماع به منفردا!، فاعتذر النّدْوي؛ لأنه خشي من اللقاء الثنائي أن يفتح بابَ الظنون والتكهنات عليه!، ولكنه اتصل به مرة ثانية وثالثة وأصر على لقائه، فذهب إليه، وقدَّمَ مشروعه في حلِّ القضية وتصفيتها...[٣].

ومع تلك الجهود هدم المسجد البابري!، فهبت مَوجات من العنف والمجازِر الدموية في (بومباي) و(سورت) و(أحمد آباد) وغيرِها.

---

(١) في مسيرة الحياة ٣/٥٢-٥٩، ٨١.

(٢) في مسيرة الحياة ٣/٨٨-٩٢.

(٣) في مسيرة الحياة ٣/١٨١-١٨٤.

فعَقَد النَّدْوي اجتماعاتٍ عامّةً للتّصدّي لحملة العنف الشرسة، وعَقَد اجتماعاً مع رئيس الوزراء، وبيَّن النّدْوي في حديث مع الرئيس أنّ البلاد تحترق!، وأنها على فُوَّهَة بُركان، ولا بدّ من التنبّه لهذا، واتخاذِ إجراءٍ عاجلٍ قبل أن تفوت الفرصة..[1].

النَّدْوي أمين عام ندوة العلماء ١٩٦١م

اختار المجلس الاستشاريُّ الندويَّ أمينا عامّا لندوة العلماء بعد وفاة أخيه الأكبر، وكانت ندوة العلماء حين ذاك تُعاني أزمة مالية، ووصلتْ إليه رسالة من بعض أهل الفضل في الكويت تطلبُ منه زيارة الكويت واللقاء بتُجَّارها لدعم الندوة، فاشترط النّدْويّ عليهم أنهم هم الذين يتكفَّلون بالحديث عن هذا الموضوع، وأن لا يتردد على الناس بنفسه في هذا الشأن، وأن تكون زيارتُه دعوية فقط[2].

الندوي: لا نريد أن نعيش عجماوات

بعد تقسيم الهند اقتضى الحالُ أن يُعقَد احتفالٌ عالمي لدار العلوم ديوبند، تظهر به عالميتها وتأثيرها، فدعت إلى مؤتمر عالميّ حضره أعداد كبيرةٌ من العالم الإسلامي، وحُشود هائلةٌ من سائر الهند، ودُعِيَتْ إليه رئيسةُ الوزراء لافتتاحه. فأحدَثَ حضورُها في مجمع لعلماء الإسلام امتِعاضا كبيرا لدى النّدْوي! وقاطَع جِلسة الافتتاح.

---

(١) في مسيرة الحياة ٣/١٨٨-٢٢٥.

(٢) في مسيرة الحياة ١/٢٧٦.

وحضر في اليوم الثاني وكان مما قال في كلمته: «نعلن صراحةً ونريد منكم أن تُعلنوا صراحةً بأننا لا نرضى أبدًا أن نعيش كعجماواتٍ ودواجنَ لا تحتاجُ إلاّ إلى عَلَفٍ ومكان تأوي إليه، إنّنا نكفر بهذه الحياة ألف مرة!، إنّنا سوف نعيش على هذه الأرض بأذاننا وصلاتنا، بل إنا سوف لا نرضى بترك قيام الليل ـ لمن وفقه الله ـ وصلاة الإشراق والتّراويح، نبقى متمسكين بكل سنة من سنن نبينا، ولا نرضى بأن نتنازل عن كلمة من كلمات سيرة نبينا وأيِّ حرف من حروفها... إننا لا نعرف أيَّ تيار قومي، إننا لا نعرف إلا التيارَ الإسلامي، فقد خُلقنا للإمامة والقيادة»[1].

العالم العامل هو الذي يقيم له الأعداء وزنا

كُوِّنت هذه الهيئة عام ١٩٧٢م، ثم تولى النّدْوي رئاستها عام ١٩٨٣م وفي عام ١٩٨٥م صدرَ حكم محكمة الاستئناف بأنّ المرأة المطلقة تبقى نفقتُها على زوجِها حتى وفاتها؛ تأثرا بالعادات الهندوكية.

فوَجَّهت الهيئةُ المسلمين في عموم الهند إلى أن يرسلوا البرقياتِ إلى رئيس مجلس الوزراء، ويُعرِّفوا المسلمين في مساجدهم بحقيقة الأوضاع، ودَعَتْ إلى عقد احتفالات عامة، وجلساتِ احتجاجٍ ضدّ الحكم في كل بقعة من بقاع البلاد.

فأُرْسِلَتْ مئاتُ الألوف من البرقيات، من جميع المناطق، وأُلقِيَت

(١) في مسيرة الحياة ١/٣٩٩-٤٠١.

خطبٌ في المساجد، وعُقِدَت احتفالاتٌ من أقصى البلاد إلى أقصاها يَحضُرها مئاتُ الألوف من الناس، كما قامَتْ مجموعات ضخمة من النساء المثقَّفات الدارسات دراسةً عصرية بمعارضة كبيرة لهذا القانون، وتطالب بالمحافظة على الشريعة الإسلامية.

بعد هذه المعارضة والمقاومة القوية للقانون جاء اتصالٌ للنّدْوي من الرئيس يخبره بأن راجيف غاندي بانتظار النّدْوي، فالتقى به وعرض عليه أهميةَ اختصار المسألة قبلَ أن يَستفحِل الأمر، وبعد أُسْبُوعين رُتِّبَ لقاءٌ آخَر مع الرئيس، وبدأ نقاش مذكّرة القانون فقرة فقرة، وكان معهم وزير القانون، وبدأ الرئيسُ يقول للوزير: اشطُبْ هذه...!غَيِّرْ هذه...!، على ضوء النقاش.

ثم فاجأ النّدْويَّ دعوةٌ ثالثة من رئيس الوزراء مع صفوة من البرلمان والقادة المسلمين لمقابلته... ثم قُدِّمَت المذكرةُ المعدلة من قِبَل العلماء للبرلمان وقال غاندي في البرلمان: «إنّ المذكرة التي قدمت للبرلمان أوسعُ دائرةً، وأكثرُ حفاظا على حقوق المرأةِ المسلمة المطلقة، وأكثر فائدة لها ونفعًا»، وفي مقابلة صحفية معه قال: «إنّ القانونَ الإسلاميَّ يُعطي ضمانًا أكبر من قانوننا الوضعي لحقوق النساء ومصالحهن».

وفي تلك الليلة التي قُدِّمت المذكرةُ فيها للبرلمان قَضَى المسلمون ليلتَهُم تلك بالدُّعاء والتضرع إلى الله تعالى بأن ينصُر دينه، ويُعليَ كلمته، وقد اشتدت المناقشةُ في البرلمان واستغرقت إحدى عشرةَ ساعة

متواصلة!، ثم بدأ التصويتُ فوافق عليها الأكثرية، ثم أرسل الندوي رسالةَ شكر إلى الرئيس غاندي[1].

وقوف النّدْوي ضد الخداع الشيعي

استغرب النّدْوي الإعجابَ الذي ناله الخميني من بعض قادة الحركات الإسلامية السنية، مع أنّ الخميني على منهج أسلافه في الانحراف والفساد العقدي، وكتاباته طافحةٌ بسبّ الصحابة، والنيل من مقام النبوة، ورفعِ أئمتهم فوق مقام الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين حتى أوصلهم إلى مرتبة الألوهية، وعدمِ اعترافه بختم النبوة، يَظهر ذلك جليًّا في كتاباته مثل: كتابيه: «الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه»، وكتاب «كشف الأستار».

ولما رأى النّدْوي هذا الإعجابَ المُفْرِطَ رأَى أن يكتب عن تلك الانحرافات الشيعية التي تظهر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفق في تربيته، فعمل مقارنة صريحة بين السنة والشيعة وأيهما أولى بالحق، فجاء كتابه الجميل: «صورتان متضادتان» الذي تُرجِم لعدة لُغات!، وكُتِب له القبولُ في كثير من البلدان وكان له أثرٌ كبيرٌ في تصحيح المفاهيم[2].

(١) في مسيرة الحياة ٢/٨٥-١٠٧.

(٢) في مسيرة الحياة ٢/١٨٧-١٩٦.

الحفاظ على صفاء العقيدة

عَقد مكتبُ رابطة الأدب الإسلامي في الهند ندوةً علمية عالمية حوْلَ المدائح النبوية، في جامعة كاشف العلوم عام ١٩٨٨م - ١٤٠٩هـ وعلق عليها الندوي منبِّها بقوله: «...ونبهتُ أخيرًا على أنه قد تورَّط عددٌ من أصحاب المدائح في بعض المزالقِ؛ بسبب الاتجاه إلى الغلوِّ والمبالغة في الشعر، وتخطَّوْا حدودَ العقيدة الصحيحة المؤسسة على التوحيد الخالص، وأبدى العارفون لرُوح الدين والغيارى على الإسلام استنكارَهُم لذلك، واعتبروه شيئًا دخيلًا طارئًا على المديح النبوي، وأشادوا بالتوحيد الخالص في شعر المديح النبوي، وعرضت بعض نماذجه في الشعر الأردي»[١].

ثم عُقِد مؤتمرُ السيرة النبويّة في بنارس ١٩٩١م، ودُعِيَ إليه النّدْوي، وتحدَّثَ فيه عن عقيدةِ ختْمِ النبوّة، وعن شيخ الإسلام ابن تيمية وبروزِهِ في تَجْلِية هذا الأمر، وتجديدِه للدين، وبيَّنَ خطَرَ الانحراف، ثم تكلَّمَ عن الفكر اليُوناني، وكيف أثَّرَ على العقيدة والتصورات الإسلامية؟، وكيف سرَى إلى صفات الله تعالى؟[٢].



(١) في مسيرة الحياة ٢/١٣٢-١٣٦.

(٢) في مسيرة الحياة ٣/١٣٧-١١٣٨.

الندوي ومشروع النهضة خارج الهند

دعوة إلى إيقاظ العرب

وقد مَلَكَتْ دعوةُ العرب إلى الإسلام من جديدٍ عقلَ النّدْوي وقلبَهُ ومَشاعِرَهُ؛ ليقوموا بدورِهم الدعوي والقيادي في الإنسانية كلِّها، ويَستعيدوا مكانتَهُم المفقودة.

ويُمكن تقديرُ عاطفتِهِ واهتمامِهِ وحماسِهِ من خلال الرسالة التي بعثها إلى مسعود النّدْوي في ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م حين كان مُقيما في العراق: «... لا تألُ جُهداً في بَذْر بذور الدين في تلك الأرض الطيبة، وأقِمْ حُجَّة الله عليهم، وصِلِ الليلَ بالنهار، وحَرِّقِ القَلْبَ، وأذِبِ الجسم، وأَهْرِقْ دموع العين ودماءَ الكبد، أهرِقْها سيلاً مدراراً حتى تَبكي دجلةُ والفراتُ على قصر باعهما وقلة بضاعتهما!، أمسك بتلابيب كلِّ شخص، وقل له: أيُّها الغزال الضال في صحراء العرب، ويا كرامةَ العالم وشرفَ الأمم، ويا أَمَلَ إبراهيمَ ومحمد - عليهما الصلواتُ والتسليمات - أين أنت؟! أهذه هي حصيلةُ دعاءِ سيدنا عمر بن الخطاب وإنابتِهِ بالأسحار؟ ودماءِ سيدنا مُثنَّى بن حارثة الغزار؟ ودَوْسِ أبي عبيد الثقفي وتَحطُّمِ عظامه؟ ورفْعِ سيدنا سعد بن أبي وقاص رايةَ القتال والجهاد؟ وحُرقة سيدنا علي بن أبي طالب وبكائِهِ وتململُه وخِطابته المثيرة وتأثيره البليغ؟ وعطَشِ سيد الشهداء فِلْذَةِ كبد الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ورُخْصِ دماء أهلِ البيت؟ وتفكيرِ أبي حنيفةَ وفقهِهِ وتأمُّلِهِ؟ وتعذيبِ أحمدَ بنِ حنبل وتضييقِ الخناق عليه؟ وحمايةِ ابن الجوزيّ للسّنّة

والدفاع عنها؟ وتألُّمِ الشيخ عبد القادر الجيلي ولوعتِهِ؟ أن تخضَعَ لأئمّة الضّلالة ودعاة الانحراف؟! وتمشي في ركابِهِم؟! **وتكون ذرة تائهة من غُبار طريقهم؟!**... انفُخ الصورَ في مَقبرة العراق وأحْدِثْ فيها جَلَبَةَ القيامة وزلزلتَها!! فيا لِضَياع (أهلِ الحَرَم) وغفلتِهِم، ويَقَظَةِ الأعداء وسَهَرِهِم»[1].

ولقد أكثر النّدْوي من زيارة البلدان العربية، والتقى بحكامها وعلمائها ومثقفيها، يُخاطِبُ كلَّ طبقةٍ بما يُناسبها، ويُذكِّرُهم بعِظَم المهمة التي يحملونها على عواتقهم في إيقاظ الأمة.

فزار المملكة العربية السعودية عِدّةَ مرّات، والتَقَى المَلِكَ سُعودًا والملك فيصلًا، وتحاوَر معهم عن خطر الحضارة الغربية وما شاهده من إعجابِ بعض المثقّفين بها، وكيف تَسري ثقافتها في البلاد، وراسلَهُم مرّاتٍ كثيرةً، وبيَّن ما يُعلِّقُه المسلمون على هذه البلاد من آمالٍ وتطلُّع، وراسَل الملكَ فهدًا في هذا الموضوع.

وكانت الرسائل متبادَلةً بينه وبَيْنَ الملوك، ينصحُهُم ويشكرونه، وبقيَ مُتواصلا مع الحُكّام والعلماء والمثقّفين في المملكة حتى وفاته رحمه الله تعالى.

وقد ألقى أحاديثَ في الإذاعة السعودية، منها: رسالةٌ من العالم إلى جزيرة العرب، ورسالة من جزيرة العرب إلى العالم، وهي رسائلُ تبعَثُ على الحماس والحميّة لدين الله، وتُثير العزّة والنَّخوةَ لدى المسلمين.

---

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٠٨-٢١٠.

كما كان يُلقِي محاضراتٍ عديدةً - كلّما زار المملكة - في مكة، وجُدّة، والمدينة المنورة، في الجامعات والمساجد وغيرها، وتتركز محاضراتُهُ على بعث الثقة في قلوب الشباب، وإثارةِ النَّخوة لديهم، ولَقِيَتْ محاضراتُه صدىً كبيرًا في نفوسهم[1].

جائزة الملك فيصل وهمة الندوي العالية

جاءت الرسائلُ والبرقيّات مُهنِّئةً له بنيله جائزةَ الملك فيصل، وتدعوه للحضور، عام ١٩٨٠م ورَدّ على رئيس لجنة الجائزة بالشكر وقال: «...لقد كان خيرًا أن ينالَ العامِلونَ في مَجَالِ الخدمات الإسلامية جائزتَهُم في الآخرة، وقد أُعْلِن عن الجائزة في غيابي، ولم يبقَ لي بُدٌّ الآن - احترامًا للملك فيصل المرحوم رائد التضامن الإسلامي... - أن أقبلَ هذه الجائزةَ... ولا أستطيع أن أحضر بنفسي، فيمثلني الدكتور عبد الله عباس النّدْويّ...، إنّ هذه الجائزةَ تحملُ جوانبَ متعدِّدة: فأما الجانبُ المعنويُّ فيها... فأنا أقبله بتقديرٍ وشُكر، أمّا الجانبُ الآخَر الماليّ الذي يُلازمه فأنا أستميحُكم أن أَصرِفه فيما أرى من مصالح الخدمات الإسلامية، سوف يُعْلِنُ عنها الأستاذ عبد الله عباس النّدْوي»، ثم قسَّمها إلى ثلاثة أقسام: نصفُها للجهاد الأفغاني، وربعُها: للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن بمكة، وربعُها للمدرسة الصَّوْلَتية بمكة[2].

---

(١) في مسيرة الحياة ١/١٩٥،٢٠٢،٢٨٤،٢٨٧، ٩٩/٣.

(٢) في مسيرة الحياة ١/٣٩٦-٣٩٨.

زيارة مصر والسودان وتوطيد علاقته بجميع الأطراف، وحثهم على الشموخ

زار مصرَ ومَكَثَ فيها ستّة أشهرٍ إلا أيامًا، وعَقَدَ الصِّلاتِ مع جميع التوجُّهات والاتجاهات الإسلامية والأدبية، وزار الجميع، وعَقد عِدّةَ لقاءاتٍ ومحاضرات في الجمعيات الإسلامية والنوادي الأدبية، والتقَى مُفتِيَ مِصر، وشيوخَ الأزهر، والشيخَ أحمدَ محمّد شاكر، وبعضَ أُدباء مِصر، وجماعةَ الإخوان المسلمين، وأنصارِ السنّة، وشبابِ مُحمّد، ومِصرَ الفتاة، والجمعيّةَ الشّرعيّة، وجمعيَّةَ مكارِمِ الأخلاق.

كانت محاضرةُ «اسمعي يا مصر» من أهمِّ المحاضرات، بَيَّنَ فيها دورَ مِصر الرِّيادِيّ ومآثِرَهَا العظيمة، ومَوقِعَها العلميّ، وفتوحاتها الأدبية، ثم قال: «يا مصر، إنّ لك يَدَيْنِ، فَخُذي بإحداهما الأشياءَ النّافعةَ المُفيدة، وأَعْطِي بالأخرى الرُّوحَ والحياة، وقدِّمي إلى الغرب تَحائِفَ الإيمان والإسلام...».

ثم رَحَلَ إلى السودان والتقى أعداداً كبيرة من أعيانها ورجالها ودُعاتها، وألهَبَ فيهم الحمَاسَ لنُصْرَة دين الله تعالى، وألقى عليهم المسؤولية، وحثَّهم على معرفة قيمتِهم ومكانتِهم وقُدرَتِهم، وأن يَحتَضِنُوا رسالةَ الإسلام التي يَحتاج إليها العالمُ المُعاصِر، وبقي فيها عشرة أيام[1].

---

(١) في مسيرة الحياة ١/٢١٧-٢٣٦.

زيارة الأردن ومقابلة الملك والاهتمام بأمر فلسطين

علم الملك عبد الله بالنّدْويّ فطلبه لزيارته، فالتقى النّدْويَّ على مائدة عشاء، وتحدث إليه عن منزلةِ أُسْرته والواجبِ عليه، وعن المسجد الأقصى وأهميتِهِ، وعن أوضاعِ الفِلَسْطينيِّين، ثُمَّ سَلَّمَ إليه كتابَه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، ثمّ التقاه في صلاةِ الجُمعة، ودعاه إلى الغداء، فوَجَدَهُ قد قرأ كتابه «ماذا خسر العالم»، وعلَّقَ عليه تعليقاتٍ طيبةً، ولفَت النّدْويُّ نظرَ الملك إلى رِعاية المسجد الأقصى والعناية به، وقدم له رسالتين: «بين العالم وجزيرة العرب» و«شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال»[١].

ثم دُعِي إلى مؤتمر مؤسسة آل البيت في الأردن عام ١٩٨٤م، وألقى الأميرُ حسن وليُّ العهد مُحاضرةً عن فلسطين، وبيَّن تعقيدَ القضية وتشابُكَها، وأوضح ذلك بالخرائط والإحصاءاتِ الدقيقة، فدُهِشَ الناسُ وأعجبوا به، ثم علق النّدْوي على المحاضرة فقال: «وخلاصة الحديث وروحه أن المسألة ليست مسألةَ الإحصائيات؛ فإنّ الإحصائياتِ تتغير، إنّ المسألة الحقيقية هي وجودُ الرّجُل المُختار، الرجل الذي يَملك عزيمةً وإيمانًا، واعتزازًا بالدين، وإرادة قوية صالحة لتغيير الوضع مهما كان مدعّمًا بالحقائق والإحصائيات، رجل كصلاح الدين الأيوبي»[٢].

---

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٣٨-٢٣٩.

(٢) في مسيرة الحياة ٢/١٠-١٣.

زيارة سوريا وحث العلماء على تربية الناس وبيان خطر الردة المعاصرة

بعد لقائه مع الملك عبد الله اتجه النَّدْويّ إلى سوريا، وألقى فيها عددًا من المحاضرات، حَضّ فيها أهلَ العلم على النزول للناس، وتربيتهم وتعليمِهم، وبيّن أنّ الشعوب مُضلَّلة تنتظر من العلماء مَن يُوقظ شُعورَهم الديني، وينفُخُ فيهم رُوحَ الإيمان، عبرَ المدارس والكليات والمساجد والتجمُّعات، وأنّ عامة الشعوب العربية تعيش مَرحلة الطفولة في الوعْي السياسي واليقظة الاجتماعية، فمَن يُوقِظُها من غَفْوتِها؟، وأوضح أنّ الزعماء لا يؤمنون بالإسلام كنظامٍ للحياة!، وأنّ إسلامَهُم لا يُجاوز تَراقِيَهم!.

وألقَى حديثينِ في الإذاعة السورية، أحدها كان بعنوان: «اسمعي يا سوريا»، ذكَّرها بماضيها العظيم وتاريخها المجيد.

وكان لمحاضرته التي ألقاها في حِمص صدىً كبيرٌ أثارَ فيها حماسَ الناس، وكان مما قاله فيها: «إنّ العالم الإسلاميَّ اليوم في حاجة إلى سيفٍ من سيوف الله، وفي أرضكم دُفن هذا السيفُ يا أهلَ حمص، فهل لكُم أن تُغيثوا العالَمَ الإسلاميّ، وتُعيرُوه هذا السيفَ المفقود...»[1].

ثم سافر إلى تركيا، وأقام بها أسبوعين، وشاهد آثار أتاتورك العلمانية في تغيير البلاد، ورجع إلى دِمَشق؛ لحضور المؤتمر الإسلامي،

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٤٠-٢٤٢.

وألقى محاضرة قوية عن أتاتورك، ومدى الانحطاط والتردي الذي أحدثه في الأمة المسلمة.

وكتب النّدْويُّ في أول افتتاحية مجلة (المسلمون) في دمشق مقالًا بعنوان «ردة جديدة»، نبّه فيه إلى أنّ ردّةً تكتسحُ العالم الإسلامي، جاءت من زحف أوربا السياسيّ والحضاريّ على العالم الإسلامي، وهي أعظمُ ردة حدثت في التاريخ الإسلامي، وهي انتشار اللادينية!، وبيَّن أخطارها ومَظاهرها، ثم طبعت بَعْدُ تحت مسمى «ردة ولا أبا بَكرٍ لها»!، وطُبعت عشراتِ المرات، ووزعت بكَمِّيات ضخمة[1].

زيارة الكويت، وخطر بناء معابد غير المسلمين في جزيرة العرب

في عام ١٩٦١م زار النَّدْويّ الكويت عِدَّةَ مرات، والتقى دُعاتَها ورجالها، كما ألقى أحاديثَ في إذاعة الكويت كان منها «اسمعي يا زهرة الصحراء».

ثم قدَّم رسالة إلى أمير الكويت، شرَح فيها طريق رُقِيّ العرب وازدهارِهم، ووحدتهم وقيادتهم، وحلِّ قضاياهم ومشاكلِهم، ونبَّهَ إلى خطر بناء معابد غيرِ المسلمين التي بدأت تؤسَّس وتُقامُ في دولة مسلمة كالكويت والإمارات العربية، وهي تخالف صراحةً وصية الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يترك دينان في جزيرة العرب»[2].

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٦٩-٢٧٠.

(٢) في مسيرة الحياة ١/٢٧٦-٢٧٧.

زيارة المغرب ١٩٧٦م وبث النَّخوة في نفس الملك وحثه على إنقاذ الأمة

عُقِد مجلسُ رابطة الجامعات الإسلامية في المغرب، ودُعِي إليه النَّدْوي؛ وقد التقَى عددًا من العلماء والمثقفين، وألقى عددا من المحاضرات والخطب، ثم التقوا ملكَ المغرب، وألقى كلمةَ الضيوف أمامَ الملك، فقال: «إني أكتفي بالتحيَّةِ التي علَّمَنا إياها نبيُّنا الأعظم، وجَدُّكم الأجلّ، محمد صلى الله عليه وسلم - أرواحُنا فداه - أعني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكذاك أكتفي لكم بالدعاء الذي يدعوه الخطباءُ في يوم مباركٍ في ساعة مباركة وعلى منابر المساجد كلَّ يومِ جمعة، أعني: اللّهُم انصر مَن نَصَر دينَ مُحمّد صلى الله عليه وسلم، واجعلنا منهم... إنني أسعد بتبليغِ رسالةٍ كريمة إليكم عن العالم الإسلامي، أراها أمانةً في عُنُقي، ومسؤوليّةً على عاتقي، وهي أنّ المسلمين اليومَ في مَشارق الأرض ومَغاربها ينتظرون بفارِغ الصّبر أن يَطلُعَ مِن أُفق العالم الإسلامي نجمٌ جديد، يُعلِّقون به آمالَهم، إنهم يعيشون وضعًا متردِّيًا، عصيبًا عجيبًا، يَحتاجون فيه إلى قائدٍ عصاميّ، مُؤمنٍ ألمَعِيّ، يمتاز بإخلاصِهِ ويقينه، وعَزمِه الراسخ وقلبِهِ الواثق..»[1].

زيارة اليمن والتحذير من الميوعة وبيان مغبة الترف والسرف

زار النَّدْويُّ اليمنَ في عام ١٩٨٤م والتقى عددًا كبيراً من علمائها،

(١) في مسيرة الحياة ١/٣٧٥-٣٧٨.

كما التقى رجال الدولة، وألقى عِدَّةَ محاضراتٍ في الجامعات والمساجد، والتجمعات الإسلامية، وزار العالِمَ ياسين عبد العزيز، وتعرَّض ياسين في حديثه على الجماعاتِ الإسلامية قائلا: «إنّ هناك طريقين: أحدهما: أن يَصِل أهل الإيمان والصلاح إلى كراسي الحكم، أي أن يستولوا على مقاليد الحكم. والثاني: أن يَصِل الإيمان إلى تلك الكراسي، أي أن يَقبل أهلُ الحكم والسلطان الدعوةَ، ويتحمّلوا مسؤوليةَ نشرِها وتنفيذِها»، ثم قال للندوي: «إنني قد فهمتُ من مطالعة كتاباتك أنك ترجح الطريقَ الثاني»، فوافقه النّدْوي[1].

ثم زار عددًا من علماء اليمن، وألقى خطابا في جامع المظفَّر حضره عددٌ من العلماء والأعيان، وأشار في خطابه إلى خطر التَّرفِ والسَّرف، والمُيوعة والاسترسال في إشباع الرّغَبات، والركونِ إلى الدَّعة والراحة، وشرح لهم بيتا من شعر إقبال: «تعال أخي أخبرك بسر مقادير الأمم والشعوب، وسببِ رُقيِّها وانحطاطها، إنها تبدأ دورها بالسيوف والأسِنّة، وتنتهي الحكايةُ بالملاهي والأغاني، ورنّات المثالثِ والمثاني، والزّخارف والأماني»[2].

الرحلة إلى بورما والدعوة إلى تقديم الإسلام للأكثرية حفاظا على الأقلية

رحل النَّدْوي إلى بورما عام ١٩٦٠م بدعوةٍ من أحد علمائها،

(١) في مسيرة الحياة ٢/٢٣.

(٢) في مسيرة الحياة ٢/٣٦.

فمَكَث في مدينة (رنجون) أكثرَ من شهر، وألقى فيها عشراتِ الخُطَب، ووجَّه المسلمين إلى العناية بدعوة المواطنين من الكفار إلى الإسلام وقال: «إنه إذا لم يتحقق هذا العملُ هنا فلا حفاظَ للمسلمين، ولا ضمانَ لتجارتهم، ورخائهم، وعيشتهم الهنيئة...»[1].

زيارة بنغلادش عام ١٩٨٤م وربط البلد بالإسلام

يرى النّدْوي حاجةَ البلد إلى إيقاظ الشعور الدّيني والحمية الإسلامية فيه، وأن يُنَشَّطَ وعيُهُ الفكري والعقلي، وأن يُرفَع حميَّتُه الإسلامية التي تسري في شرايينه إلى الحركة والعمل والبناءِ من جديد[2].

وقد ألقى عِدَّةَ خطاباتٍ ومحاضرات وخُطَب، حضرها حُشودٌ من العلماء والمسؤولين، وكان مما قاله في يوم الجمعة في المسجد الذي يصلي فيه رئيسُ الدولة: «إنّ مصير هذه البلاد مرتبطٌ بالإسلام ارتباطًا وثيقًا...، وإنّ الحكام والأمراءَ قديمًا كانوا يُقطِعون إقطاعاتٍ لأناس، فكانت تَخُصُّهم، وتُعيِّن لهم، وإذا أراد أحدٌ أن يسطوَ عليها كان ذلك إعلانا بالحرب ضِدّ الحاكم أو الأمير، كذلك فلتعلموا أنّ هذه الأرضَ أرضَ بنغلاديش مُنحَت للإسلام ولِمُحمد صلى الله عليه وسلم، فأيُّ تغييرٍ في هذا الوضع وأيُّ إجراءٍ لتقديم هذه البلاد إلى أيدٍ أخرى وسلطةٍ أخرى، ونصبُ راياتِها وأعلامِها بها خُروجٌ وبَغْيٌ ضدَّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم!، وعُدوانٌ أثيم ضدَّ الإسلام... وإنني أقول على منبر

(١) في مسيرة الحياة ١/٢٧٢.

(٢) في مسيرة الحياة ٢/٤١.

هذا المسجد بصراحة: إنه لا يمكن أبدا أن تَنعم هذه البلادُ بالرّفاهية والرخاء ويَقَرَّ لها قرارٌ إذا تخلت عن الإسلام أو ضَعُفت صلتُها به...»[1].

زيارة أوربا واشمئزازه من الحياة الأوربية

زار النّدْويُّ عددًا من الدول الأوربية، والتقى عددًا كبيرًا من الشباب العرب، ورأى انصرافَ بعضِ الشباب عن الدين، وتحسَّر على ذلك وذكَّرهم، وبثَّ روح العزةِ في نفُوسِهم، وصغَّر لهم من شأن الغرب.

وكان في مُقامه في أوربا يبعثُ برسائله إلى إخوانه وتلاميذه يصفُ فيه حياةَ أوربا الخاوية الضائعة، ومَهانة المرأة وسقوطَها وضياعَها، ويقول: زاد يأسي واشمئزازي من الحياة الغربية، ويَبدو أنها فقَدت من الحسِّ والشُّعور ما لا أملَ معه في نهضتها![2].

زيارة أمريكا ١٩٧٧م وبث العزة في نفوس المسلمين للمحافظة على هويتهم

دُعِي مراراً بإلحاح إلى زيارة أمريكا من كثيرٍ من المراكز الإسلامية هناك، وأخيرا حضَر مؤتمرًا إسلاميًّا عُقد هناك، ثم زار عددًا كبيرًا من ولايات ومدنِ أمريكا، وألقى فيها أكثرَ من عشرين خطابًا، إضافةً إلى خُطَب الجمعة، ومُحاضراتٍ في كثير من الجامعات الأمريكية، واجتمع بالجاليات المسلمة من الهُنود والباكستانيين والعرب، وحذَّرهم من

(١) في مسيرة الحياة ٢/٤٢-٤٥.

(٢) في مسيرة الحياة ١/٢٨٩-٢٩٧.

أمرين: من ذوبان أبنائِهم في المجتمع الأمريكي، وقال: «إن خفتم عليهم فلا يجوز لكم البقاءُ ولا ساعةً في هذه البلاد»، وحذَّرهم من الإسلام الأمريكي، وقال: «إنّ الإسلام يحتاجُ إلى جوٍّ خاصّ، وطَقْسٍ خاصّ، ودرجةٍ خاصّةٍ من الحرارة والبرودة، وهو يجمع في وقت بيْن العقيدة والعمل، والأخلاقِ والمُعاملات، والعواطف والوعْي والشعور، والذوق الخاص الذي يحيط بالإنسان ويصوغه في قالب جديد»[1].

زيارة أوزبكستان وربط الناس بالمعتقد الصحيح والاقتداء بسلفهم الصالح

عُقِدَ مؤتمرٌ في سَمَرْقَنْد؛ إحياء لذكرى البخاري في عام ١٩٩٣م، وحضر المؤتمرَ ممثِّلون من جميع الدول العربية والإسلامية، وأُلقِيَتْ عِدّةُ بحوثٍ وخُطَب، وكان للنّدْويِّ عِدّةُ خطاباتٍ، أعاد فيها ذكرياتِ جِلَّةِ أئمة الإسلام مثل البخاريِّ، والتِّرمِذي، وغيرِهما، وبيَّن عظيمَ أثرِهم على الأمة، وأهميةَ الاقتداء بهم، ثم لَفَتَ الانتباهَ في آخرِها إلى خَطَرٍ!، وهو أن لا يُصبِح في مرحلةٍ من المراحل قبرُ الإمامِ البخاريّ ضريحا مثل الضرائح الأخرى، تنشأُ حولَهُ نباتات، مثلَ قُبور الصالحين في الهند،... ثم ذكرهم حديث: «لعنَ الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وحديث: «لا تجعلوا قبري عيدًا»[2].

(١) في مسيرة الحياة ١/٣٧٩-٣٨٢.

(٢) في مسيرة الحياة ٣/٢٨١-٢٩١.

من نتائج جولات الندوي في العالم

هذا وقد طوف النَّدْويُّ في غالب بلدان العالم الإسلامي، فزار فِلَسْطين، والعراق، والجزائر، وقطراً والإمارات، وزار ماليزيا، وإيرانَ، وأفغانستان[1].

وقد كان النَّدْوِيُّ موفقًا في نهضته بالأمة؛ فقد أثار النَّخوةَ، وزرع العزة بدين الله في قلوب شباب الأمة، وحثّ العلماءَ والدعاة والمصلحين على النزول إلى الناس وإنقاذِهم، وعمل على إسقاط هيبةَ الغرب والإعجابَ به من قلوب مستمعيه، من خلال أحاديثه المفعمة بالإيمان والاعتزازِ بالإسلام، ونقد الغربَ من الداخل وبين عَوار حضارته وسقوطَها، واهتم بتأصيل المناهج الدراسية وبث الحيوية فيها والاعتزاز بالدين، وتخليصها من شوائب الشرك والانحراف.

وخاطب الرؤساءَ والملوك، وذكَّرهم مسؤوليّتَهم تُجاه الأمة، وما ينتظرُه منهم المسلمون، وصغَّر في أَعيُنِهم دُولَ الغرب وكشَفَ لهم زَيْفَ حضارتهم.

ودافَعَ عن قضايا الأمّة بصدقٍ وإخلاص، وحُقِنت بسببه دماءُ المسلمين في مواطنَ كثيرة، وخفَّف من عداوة الكفار لهم، وعَرَّفَ بالإسلام في مواقعَ مهمةٍ مما دَرَأ أخطارًا كبيرة عن المستضعفين من

(١) انظر كتاب: (مؤلفات أبي الحسن الندوي) ص ١٩، إعداد محمد طارق زبير الندوي، ط الأولى، عام ١٤١٩هـ مكتبة حراء، لكهنؤ.

الأقليّاتِ المسلمة.

وقد سجَّل النّدْوي حركتَهُ في النّهضة وبَعْثِ العالم الإسلاميّ من جديد في كُتُبه الكثيرة، وفيها حكى تَجْرِبتَهُ بالتّفصيل، فأصبَحَتْ زادًا لَمن جاء بعده، وإنّ الناظر في كُتبه يرى عنايةَ النّدْوي رحمه الله بمشروع نهضة هذه الأمة.





دروسٌ وعظات

ثمّ إنّي استحسنتُ أن أذكُر هنا بعضَ الدروسِ والعظات التي يمكن استخلاصُها من هذه الدراسة الموجَزة:

١. أنّ تجديدَ أمر الدين وإحياءَهُ لا يكون إلا على أيدي ورثةِ الأنبياء وهم العلماء، وإذا نظرنا في ما قامت به جمعيةُ العلماء المسلمين في الجزائر من إحياءٍ لدين الإسلام في الجزائر بعد ما عملت فرنسا عملَها في سلخ الجزائر من دينها ولغتها لغة القرآن، إذا أمعنَّا النظرَ في ذلك وجدناه أمراً عظيماً، وحقيقةً ناصعة لا تخفى على أحد، وهؤلاء العلماءُ أعادوا بسيرتهم إلى الأذهان صُوراً ناصعةً لعلماء السلف الحاملينَ لرسالة الإسلام، المجتهدين في تحصيلِ العلم والعمل، ثم السعيِ لنشرِهِ والاجتهاد في تبليغه.

٢. أنّ العلمَ هو أساسُ نهضة الأمم، وهو نورٌ للعقول والقلوب، وأنه لا يُمكن لأمّة الإسلام أن تنهَضَ إلا بالعلم وإحياءِ ما اندرس منه، فبالعلم تحيا القُلوب، وبه وحدَهُ تنهض الشعوب، وأعظمُ العلوم نفعاً

علوم الشريعة، وأهمُّها أثراً في إحياء النفوس وتنويرِ العقول والقلوب العلمُ بالله، ومعرفتُهُ بأسمائه وصفاتِه.

٣. تعليمُ عامة الأمة صغاراً وكباراً ما يجب عليهم في أمر دينهم، ونشرُ العلم الشرعيّ – عقيدة وعبادة – عن طريق الدروس، والمحاضرات، والتأليف، والمقالات، وفي المساجد، والمدارس، والكتب، والصحف، والمجلات، وغيرها...

٤. تخصيصُ دروس لاصطفاء النخبة وتربيتِهم تربيةً علمية ودعوية وعملية، تؤهِّلهم لأن يكونوا علماء ربانيين.

٥. النبوغ في العلم والعمل والعقيدة والعبادة ينتج قيادةً على مستوى عالٍ من الوعي بواقع الأمة، ومستوى عالٍ من الوعي السياسيّ، والحُنْكة والحكمة في تدبير الأمور، فلا تجري خلفَ سرابِ المصالح الموهومة، ولا تخدعُها ألاعيبُ السياسيين، ولا تنجرُّ لمعارك جانبية، بل تسيرُ بخطىً ثابتة نحوَ تحقيق أهدافها المحدّدة، وَفْقَ برامج معدّة سلفاً.

٦. أهلُ العلم والخبرة هم الذين ينظرون بنورِ الله، فيجب أن يقوموا على وضع خِطَطٍ بعيدة المدى لإصلاح الناس، يصحَبُها خِططٌ تنفيذية لتحقيق أهداف تلك الخِطّة، ووسائلُ واسعةٌ مؤثرة تتناسب مع شرائحِ المجتمع.

٧. لا ينبغي للعالِم أن يُخيفَهُ كثرةُ الأعداء، أو يُدخِلَ اليأس في قلبه ضخامة مشروعهم، ويَقتُلَ في نفسه آمالَ الإصلاح، ويَقعُد دونَ تفكير في السبل الممكنِ اتّباعُها لإخراج أمته من ظلمات الضلالة

والانحراف، بل يجب عليه القيامُ بما في وُسعه، وأن يعملَ في حدود إمكاناته وقدراته محتسباً ذلك على الله تعالى؛ فإنّه سبحانه لا يُضيع أجر من أحسن عملًا: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٠-١٢١).

٨. أنّ التفكير في عملٍ مّا ودراسةَ وسائلِه الشرعية وتفاصيلِ خِطَطه لا يعني قُرْبَ حصوله، بل قد تظَلّ هذه البرامج صُوَراً ذهنية تتراءى في مَخِيلة العالم، ويصحبُها مِن حُسن النية وتوفيقِ الله تعالى ما يحقّقُها في الخارج ولو بعد سنين؛ إذ إنّ تحقُّقَها مرهونٌ بمشيئة الله وقدرته أوّلا، وبتهيئة الله لها مكاناً صالحاً، وأُناساً يرفعونها ويُساندون قيامَها على أرضِ الواقع.

٩. معَ سيطرة الانحراف والفساد وتفشي البدع والإلحاد فستبقى فِطرُ كثيرٍ من العوامّ على سلامتها غالبًا، تنبعث الحياةُ فيها بمجرد التنبيه، وتستيقظُ بالتوجيه، فيجب على العالِم أن لا ينظرَ إلى العوامّ نظرةَ يأس منهم، أو استبعادٍ لصلاحهم ورجوعهم إلى الحق.

١٠. ربطُ الأجيال في بنائهم بلغة القرآن مما يُهيِّؤهم لحمل هذا الدين، ونشره، والذبِّ عن حياضه. ومن واجبات العلماء إشعار الأمة بعظمة اللغة العربية وأهميتها في فهم هذا الدين وبذل ما

تستحقه من جهد في تعليمها ونشرها في الأمة وإبراز أهمية الكتابة الرّصينة باللغة العربية وآدابها في نشر العلوم الشرعية والعقيدة الصافية.

١١. إعلانُ الحق، والقوة في الصدع به، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦)، قال السّعدي: (وفي قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ﴾ إشارةٌ إلى الإعلان بالعقيدة، والصّدْع بها، والدعوةِ لها؛ إذ هي أصلُ الدين وأساسُه).

١٢. من أهمِّ عناصر التهيئة لقيامِ حركةٍ علمية مناهضة للتغريب تعليمُ الصغار، وتخريجُ معلّمين مربّين، ونشرُ العلم الشرعيِّ بكل الوسائل المتاحة، وتطبيعُه لعامّة الناس.

١٣. ينبغي أن يَشتغل العلماءُ الكبار بالإشراف على العملية التعليمية، ووضعِ الخِطط والبرامج لها، وتفويضُ الأعمال الأخرى إلى طلبة العلم الصغار، وعدم الاشتغال بأمورٍ تنفيذية يمكن أن يقوم بها غيرُهم.

١٤. الاهتمامُ بجلسات المراجعة، وحسابِ المكاسب والخسائر ومعرفةِ نقاط الضعف والقوة، والفرص المتاحة مع إدراك التحديات، وتداركِ السلبيات في أوانها، ومعرفةِ الطاقات والقدرات المستجدة وتوظيفِها في موقعها المناسب.

١٥. تأسيسُ النّظُم واللوائح على نورٍ من شرع الله القويم، مع الْحُنكة في الوضع ودقةِ النظر والبُعدِ عن الإثارة.

١٦. عدمُ إسناد تفسيرِ اللوائح إلى مَن لا يحملون هدَفَ تربية الناس وإصلاحِهم ونشرِ العلم في أوساطهم؛ حتى لا تَنحرِف عن أهدافها ومقاصدها.

١٧. التنبّهُ إلى سلاح تخديرِ الأمة وتجهيلها - وهو الطرق الصوفية والخرافة - الذي يعمل في خندق واحدٍ مع الاستعمار، والعملُ على فضحِه من جهة، وتعليمِ الناس أمرَ دينهم من جهة أخرى.

١٨. أهميةُ تفعيل الخيرِ لدى عامة الناس، واحتضانهم وشغلهم بالنافع المفيد، وعزلهم عن مجالات الشر، وإشعارهم بأنّ قضية الإسلام قضيّتُهم، وأنّها قامت على أيديهم وبأموالهم فيَهبُّون إلى حمايتها والدفاع عنها.

١٩. إذا لم تحتوِ الخِطّةُ بدائلَ فهي خِطةٌ ضعيفةٌ ناقصة، ومآلُها إلى الانحسار والزّوال، بل يجب أن تأخُذَ في حسابها كافةَ التغيُّرات المتوقّعة، وإعطاءُ الظروف والمفاجآت مكانَها منها؛ فالمؤمن كيِّسٌ فطِنٌ، فهو مع عظم توكّلِه على الله تعالى كثيرُ الاحتياط، يستقرئُ الأحوال ويضع في الحسبان أسوأ ما يتوقع، يُعِدُّ لكل حالة ما يناسبُها من الأعمال والترتيب.

٢٠. العلماءُ صِمَامُ الأمان للعمل الإسلاميّ من الانحراف، أو الحماسِ غير المنضبط، وأيُّ عملٍ يسوسُه العلماء فهو حريٌّ بالنجاح.

٢١. كلَّما عظُم الاهتمامُ وحَمْلُ همِّ الإسلام صغُر ما دونه في حس العالِم، حتى تصغُر عنده نفسُه التي بين جنبيه فيُؤثِر عملَهُ على صِحّته وراحته.

٢٢. عدمُ التنازل عن العقيدة والمبدأ مهما كانت الشدائدُ والأزمات، والبعدُ التامّ عن الكلمات والمقالات التي تَستجدِي العدوَّ أو توافقُه مهما كانت الظروف.

٢٣. يجب على الدعاة والمصلحين في العالم كلِّه إيضاحُ دعوتهم وأهدافِهم للناس، وعدمُ التنازل عنها، ما دامت مَبنِيّةً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أمّا أن يجتمع الناس على أفكارٍ غير واضحة، ونِقاطٍ مُحتمِلة، وبنودٍ حزبيّة لغير الكتاب والسنّة فهذا علامةُ الفشل من أول الطريق.

٢٤. العملُ السليم هو الذي لا يفرط في أحدٍ من المجتمع أو يلفظُه، مهما كانت طاقاته وقدراته؛ فالأمة محتاجةٌ للجميع، من شيوخٍ وشبابٍ، أو نساءٍ وصبيان.

٢٥. تعدُّدُ الوسائل من علامات قوةِ الدعوة ونجاحِها، فينبغي للعالِم أن لا يَجمُد على حالٍ واحدة، أو يأخذ بسببٍ أو وسيلة واحدة.





الخاتمة

تبيَّن بما سبق للقارئ الكريم عناصرُ مشرُوعِ العُلماء الرّبانيين في نهضة الأمّة الإسلامية، وقد أوضحتُ قدرتَهُم على التّوجيه والقيادة، وأنّهُم صِمَامُ الأمان وسفينة النجاة للمسلمين.

ومثَّلتُ لمشروعهم بالمثالين اللذينِ ضربتُهما مِن المغرب والمشرق، وكيف تحققتِ النهضةُ على أيدي العلماء، وأرى أنه مِن المهم سياقُ سيرةِ عددٍ من علماء النهوض في تاريخِ أُمّتنا المجيد؛ حتى تكونَ الصورةُ لمشروع العلماء في النهضة أكثرَ وضوحا، وهذا الكتاب لا يَتّسعُ لسياقِ سيرة أولئك العلماء الرّبانيين الأجلاّء الذين قادوا الأمةَ إلى الرُّقِيّ والنهوض في جميع مجالات الحياة.

ومِن المهمِّ أيضا بيانُ واقع المسلمين في الأزمنةِ التي أُقصِيَ فيها العلماءُ الربانيون عن توجيه الأمة! أو قلَّ وُجودُهم فيها في تاريخهم الطويل، وتوضيحُ أثرِ هذا الإقصاء في تَبَدُّدِ طاقات الأمة، وسقوطِ هَيبتها، وتسلُّطِ أعدائِها عليها وسلبِهم خيراتِها، ووقوعِها في ظلماتِ الجهل والتخلُّفِ والانحدَار!.

وصدَقَ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حيث قال: «يُوشِكُ الأممُ أن تَدَاعى عليكُم كما تَداعَى الأَكَلةُ إلى قَصْعَتِها فقال قائل: ومِن قِلّةٍ نحنُ يومَئذ؟ قال: بل أنتُم يومئذٍ كثيرٌ ولكنّكُم غُثاءٌ كغُثاءِ السّيلِ، ولَيَنزِعنّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكُم ولَيَقْذِفَنّ الله في قلوبكم الوَهْنَ، فقال قائلٌ: يا رسولَ الله وما الوَهْنُ؟ قالَ: حبُّ الدنيا وكَراهِيَةُ الموتِ»[1]، ولن تُرفَعَ الغثائيةُ عن الأمة وتَقْوَى القلوبُ وتُزرَعَ فيها الشجاعةُ ويُعالَجَ الوهن ويزهد في الدُّنيا إلا بالعلماءِ الكبارِ الذين يَنهضون بالأمة مِن كَبْوَتِها، ويُوضِحُون لها سِرَّ النجاحِ والنّجاة، ويُعيدون لها مَجْدَها وعِزَّها، ويُوجِّهُون طاقاتِها، ويَستثمِرُونَ قدراتِها فيما يُعيدُ لها المجدَ والسُّؤدَدَ بإذن الله تعالى.

والله ولي التوفيق.



(١) أخرجه أبو داود (ح ٤٢٩٧)، والإمام أحمد في المسند (ح ٢٢٣٩٧)، عن ثوبان رضي الله عنه.



الموضوعات

